الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و اللغات
مكتبة اللغة و الأدب العربي

الرقم: Fac.LL/2016

تخصص : دراسات مقارنة

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستير

الموسومة بـــ:

الحزن والألم الحاد في شعر كل من الخنساء وأبو القاسم الشابي

دراسة موازنة

إعداد الطالبة:

نقاش محمد

تحت إشراف:

أ.د. مهداوي محمد

السنة الجامعية: 2012/2011

TAS_8M_09/01

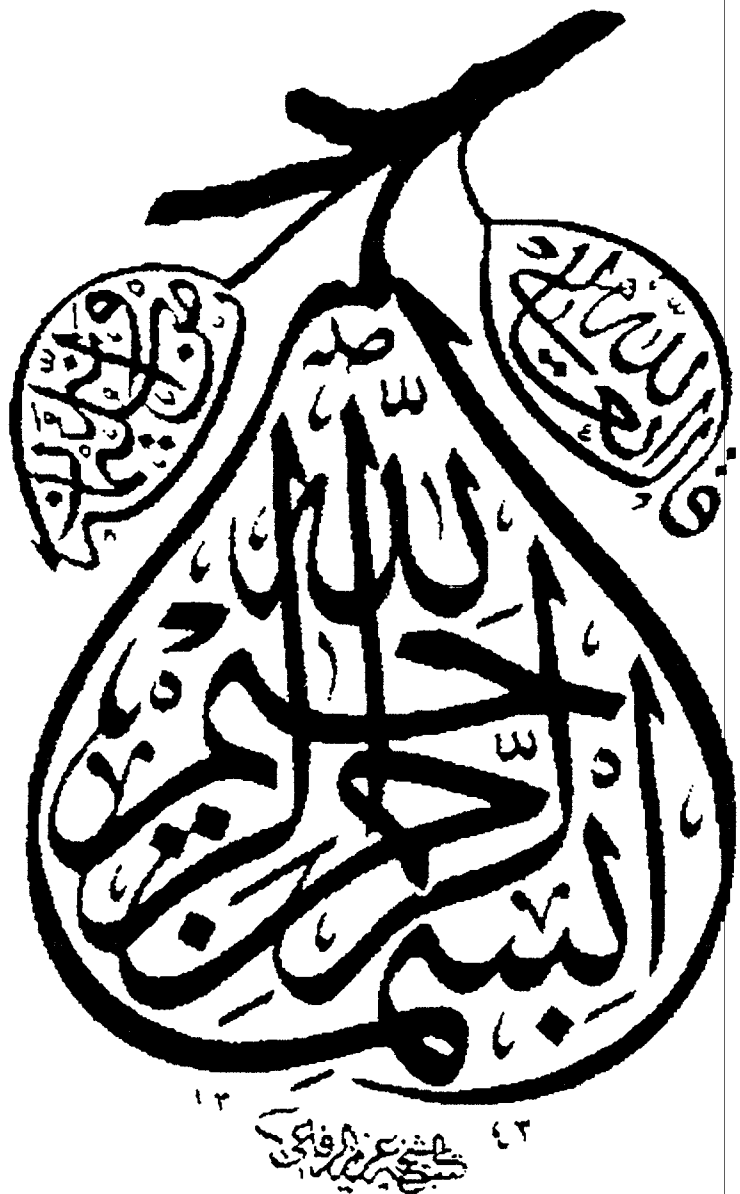

إهداء

إلى من قال فيها الرسول عليه أزكى الصلوات والسلام : " الجنة تحت أقدام الأمهات".

إلى من صبرت وتحملت الأمرين، إلى من تمنيت أن تراني في هذا اليوم إلى روح أمي الطاهرة.

إلى أبي العزيز،إلى من وجدت فيها الحنان بعد والدتي، خالتي شريفة.

إلى من تقاسمت معهما لبن الأم الطاهر: رفيق وكلثوم وعائلتهما.

إلى أخي الصغير أيوب.

إلى من عرفت فيهما معنى الصداقة والأخوة: عدالة بشير، مجاهدي محمد زهير.

إلى كل الأصدقاء والصديقات وكل دفعة دراسات مقارنة ، وكل من وسعته ذاكرتي ولم تسعه مذكرتي .

أهدي ثمرة جهدي

محمد

شكر وتقدير

" الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكان لنهتدي لو لا أن هدانا الله"

أتقدم بخالص شكري وتقديري إلى أستاذي المشرف محمد مهداوي على ما حباني به من توجيه، وشملني به من عناية في مقاعد الدرس ثم في إعداد المذكرة .

وأبسط جزيل اعترافي وامتناني بين يدي اللجنة الموقرة التي تشرف على تقويم هذا البحث ونقده، الذي أتلقاه بتعطش كبير، لأنه يرفع من قيمته ويجعله على بصيرة.

محمد

مقدمة

لقد عني الادب العربي بعديد من الدراسات، التي اسهمت بالارتقاء به وخاصة الجزء القديم منه لما كان يتميز به من ألفاظ واساليب، وذلك راجع الى البيئة الجاهلية التي كان الادب يستمدّ منها طاقته، سواءا في الشعر أو النثر. ورغم انّ هذا الاخير كان فليلا، الاّ ان كلامهم لا يزال خالدا ومشهورا. وكما قلت مردّ ذلك الى مهارة البالغة والفصاحة. ومن هذا كله نعرف ان الدراسة لادبنا القديم هي عنوان للشّعور القومي لا يمكن الاستغناء عنه.

وهذا لا يعني ان الادب العربي قد توقف او انحصر على القديم فقط، لا بل حتّى الحديث منه هو راق، فقد ظهرت عدّة نماذج مثل: المقامة والمقالة وشعر التفعيلة...وغيرها من الانواع الادبية التي لم تكن موجودة قديما، فهذا الكم الهائل والتنوع الكبير في ادبنا العربي، قديمه وحديثه على غرار الآداب العالمية الاخرى، هو الذي دفعني في البحث عن جزء واحد من الادب الا وهو مجال الشعر. فلا ريب ان الشعر كان ولايزال الوسيلة الوحيدة التي تجعل الشاعر يعبّر عن حقيقة مشاعره واحاسيسه الباطنية من جهة، وان يصور للاخرين واقعه المعيشي في احسن تصوير، وعندما يصل الى درجة الاكتمال، يبرز في اخس نزيّ وابهى صورة، فالشّعر كما هو معروف ليس صياغة كلاميّة بقدر ما هو فنّ دقيق يُوصل الى الطرف الاخر حقيقة المشاعر، وكلما اختلفت المؤثرات الخارجية تنوعت مشاعر الانسان، الامر الذي حلق اغراضا مختلفة كالغزل والفخر والرثاء والمدح وغيرها من الاغراض الاخرى. ومن كل هذا اخترت فنّ الرثاء، البحر الذي سبح فيه عدد من الشعراء، فهو من الفنون المرتبطة بالنفس الانسانية ومن اصدقها تعبيرا عن تجربة الحزن والاسى.

واخترت في هذا العمل البسيط نمطين أو عالمين مختلفين، من حيث الزمن ومن حيث الجنس ومن حيث التفكير. هما: الخنساء والشّابي، محاولا في ذلك ان اشكّل زخرفة متمثلة في الموازنة بينهما، بين الشاعرة الخضرمة التي عاشت الجاهلية زمن الفصاحة والاسلام زمن تهذيب اللسان، فهي لوحدها زخرفة كاملة. الصقتها بعصر كادت ان تنطفئ فيه جدوة الادب، بسب الظروف السياسية وبالاحرى بشاعر من المغرب العربي، وطني، رومنسيّ ورائد الحركة التجديدية في تونس هو: ابو القاسم الشّابي. فارتايت الى البحث والتنقيب، جاعلا عتبة بحثي معنوة بـ: الحزن والالم الحاد في شعر كلّ من الخنساء وابو القاسم الشّابيّ – دراسة موازنة– فجاء البحث مقسّما الى مقدمة ومدخل تحدثت فيه عن الرثاء بصورة عامة، فعرّفته لغة واصطلاحا واعطيت مراتب اللّهو من: تابين وندب وعزاء، اضافة الى الوانه المختلفة بين رثاء المقربين الى رثاء الشخصيات ورثاء النفس الى رثاء المدن والمماليك. وهذا العمل قد احتوى على اربعة فصول، يتراوح عدد المباحث فيها ما بين الاثنين الى الثلاثة.

فكان الفصل الاول عبارة عن ترجمة لكلى الشاعرين، فكنت ابدؤ بالخنساء بحكم الاسبقية في العصر. اما الفصل الثانين فقمت بإعطاء كل الادلة التي تثبت بانهما شاعرا حزن ورثاء مستشهدا بنصوص شعرية. اما الفصل الثالث فعنونته بالدراسة السيكلوجية، ابتداته بمداخلة عن عصر كلى الشاعران، اعني بذلك الجاهلي والاسلام والحديث، وكل الظروف المحيطة بهما. ثم تطرقت في المبحث الاول الى الدراسة النفسية للخنساء ذاكرا سبب حزنها ولوعتها، اما المبحث الثاني فكان يخص الشابي. حتى نصل الى اخر هذه الفصول وهو الفصل الرابع، الذي كان عبارة عن دراسة اسلوبية، اندرجت تحته ثلاثة مباحث، فكان المبحث الاول معنونا بالتكرار عند كلى الشاعران وما خلّفه. اما

المبحث الثاني فقمت بدراسة الوزن او البحور مركزا على اهم البحور واكثرها شيوعا عند كليهما. اما اخر المباحث في هذا الفصل فخصّصته لدراسة القافية والرّوي واهم المتغيرات. ففي هذا الفصل حاولت ان ابين الدواعي الخفية التي شكلت تلك المواصفات في اطار التجربة ومثيراتها النفسية المختلفة. وفي نهاية المطاف ختمت هذا العمل ببعض النتائج والملاحظات التي توصلت اليها. معتمدا في طبيعة الحال على مناهج مختلفة منها: التاريخي بحكم تقصّي المعلومات الخاصة بالشاعرين، اضافة الى النهج الاحصائي والنهج النفسي بحكم تحليل المضمون الشعري، وما رافقه من ظروف نفسية. وهذا الخليط من المناهج يمكن ان ندمجه في منهج واحد ونقول عنه منهج تكاملي. وبطبيعة الحال كنت قد اعتمدت على مجموعة من الكتب المهمّة، والتي سهلت عليا اكمال هذا البحث منها على سبيل المثال: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، الاغاني لابي الفرج الاصفهاني، دوان الخنساء اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، وديوان اغاني الحياة للشّابي. بالاضافة الى مجموعة من الكتب الاخرى والمعاجم، فكلها كانت مساعدا لي لمجابهة الصعاب واكمال السير. ولا يخفى عليكم ان كل عمل الاّ وتواجهه الصعاب خاصة في مجال المراجع وغيرها طبعا، الا انني وبقليل من الصبر استطعت على تحمّل كلّ ذلك. راجيا من المولى ان يوفّقني في هذا العمل البسيط.

في 2012/05/19

مدخل

المدخل

الرثاء

تعريف الرثاء:

لغة

اصطلاحا

مراتب الرثاء:

الندب

التأبين

العزاء

صور الرثاء

رثاء الأهل والمقربين

رثاء الشخصيات

رثاء النفس

رثاء المدن والمماليك

إن الرثاء غرض شعري بارز في التراث العربي بروز حتمية الموت، وهو فرصة للتعبير عن الشعور المتحسر، وهو يكاد يتعمق في القديم مند وجد الإنسان ،ووجد أمامه مصير الموت...[1].

ممن أشار إلى هده القضية أيضا: ابن رشيق المسيلي، حيث أورد بابا كاملا للرثاء.وما جاء فيه ((ليس بين الرثاء و المدح فرق. إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت[2] ،مثل(كان)ليعلم انه ميت)) فما هو الرثاء لغة؟ما هي أنما طه؟وما هي مستوياته ؟

الرثاء لغة:

لقد وردت له تعريفاته عدة في المعاجم اللغوية.

قال الزمخشري:" رثيت الميت بالشعر، وقلت فيه مرثية ومراث، والنائحة تترثى الميت: تترحم عليه وتندبه".[3]

ويرى ابن فارس:" أن المعتل "رثى" أصلي في الثلاثي ويدل على رقة وإشفاق، يقال : رثيت فلان أي رققت"[1].

---

[1] الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر 1955، ط2، ص5.

[2] العمدة في محاسين الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، نتحقيق محي الدين عبد الحميد، منشورات دار الجيل، بيروت 1401هـ/1981 ،ج2،ط5،ص147.

[3] أساس البلاغة الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، مادة رثى ،ص155.

نقول : رثأت اللبن أي: خلطته بالحليب. فرثأ أي: خثر وعن المضعف "رثّ". قالوا:" أن اجتماع الراء والثاء أصلي يدل على معنى الإخلاق والسقوط. فنقول ثوب رث وحبل رث أي خَلِق وبالي".[2]

وقال بن منظور:" رثأت الرجل رثأ مدحته بعد موته..."[3].

ومن هنا يتضح معنى الرثاء فهو من باب المدح، لأنه مدح الميت وذكر صفاته، ونلحظ أن الزمخشري قد قصره على الندب.

أما ابن منظور فقد ربطه بالمدح أي ذكر الصفات الحميدة ومزايا الشخص لكن بعد موته وبذلك يكون في مجال الرثاء.

[1] مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء العلوم العربية، القاهرة، 1369هـ ،ج2،ص384.

[2] الصحاح الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، 1907، ج1، ص2351.

[3] لسان العرب لابن منظور. دار صادر بيروت. 1414هـ- 1994م، ط3، مادة رثأ،ص83.

الرثاء اصطلاحا:

إن الرثاء هو فن وجداني يقوم أساسا على وصف الميت، وذكر محاسنه، ويتميز بصدق المعاني وقوة العاطفة.

حيث يقول عنه حازم القرطاجنّي:" (-684):" فأما الرثاء. فيجب أن يكون شاجي الأقاويل، مبكي المعاني مثير للتباريح، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة، في وزن متناسب ملذوذ، وأن يستفتح فيه بالدلالة على المقصد، ولا يصدّر بنسيب، ولأنه مناقض لغرض الرثاء، وإن وقع للقدماء نحو قصيدة دريد بن الصمّة في رثاء أخيه:

أَرَثَّ جَدِيدَ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعَاقِبَةٍ أَمْ أَخْلَفَتْكَ كُلَّ مَوْعِدِ[1]

ويعد بعض النقاد، الرثاء من أسمى أغراض الشعر وغالبا ما يصعب على المبدعين لأنه يعمل رغبة لا رهبة وتزلفا، وقيل للأصمعي:" ما بال المراثي أجود أشعاركم؟" قال:" لأننا نقولها وأكبادنا تحترق".

وكانت بنو أمية لا تقبل الرواية ما لم يكن رواية للمراثي، قيل: ولم ذلك؟ قيل: "لأنها تدل على مكارم الأخلاق".[2]

[1] مناهج البلاغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنّي،تقـــديم وتحـــقيق محمد الخوجة ،دار العرب الاسلامي بيروت،ط2 ،1981،ص351. 352.

[2] البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة. 1975، ط4، ج2، ص320.

مراتب الرثاء:

إن الرثاء ألوان ثلاثة: ندب وتأبين وعزاء:

الندب:

يقول عنه ابن منظور:" ندب الميت بعد موته من غير أن يقيد ببكاء وهو من الندب للجراح، لأنه احتراق ولذع"[1].

وهو بكاء الأهل والأقارب" حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر ويتفجع...فيبكي باللّ موع الغزار، وينظم الأشعار، يبث فيها لوعة قلبه وحرقته"[2]. ويقول حازم القرطاجنّي: "القول بالرزء إن قصد استدعاء الجزع من ذلك تفجيعا"[3].

ونجد هذه اللوعة المتقدة عند شعراء كثيرين، ولعل متمم بن نويرة وهو صحابي جليل، أكثر الشعراء لوعة وحرقة على أخيه مالك، وقلة نسيانه أخاه، أنه كان لا يمر بقبر، ولا يُذكر الموت بحضرته إلا قال:" يا مالك" ثم فاضت عبرته. وفي هذا الصدد يقول:

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ .:. لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالدَّكَادِكِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الْبُكَا .:. ذَرُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ[1]

---

[1] لسان العرب ،ج1، ص754.

[2] الرثاء شوقي ضيف، ص5.

[3] مناهج البلاغة وسراج الأدباء، ص337.

ويقول الفرزدق في هذا المعنى:

أَلَمْ تَرَى أَنَّ يَوْمَ جَوِّ سُرَيْفَةٍ .:. بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي مُنَيْذَةُ مَالِيَا

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لَرَاحَةٌ .:. بِهِ يَشْتَفِي مَنْ ظَنَّ أَلَّا تَلَاقِيَا[2]

التأبين:

هو أحد أنماط الرثاء، كان يستعمل للثناء على الشخص حيا أو ميتا، ثم اقتصر على الأموات فقط. ويقول عنه الزمخشري (-538 هـ) :" أبّنه مدحه وعدّ محاسنه... تقول: لم يزل يقرد أحياكم ويؤبّن موتاكم"[3].

وهو ذكر مآثر الشخص بعد موته. ويقول ابن منظور:" أبن الرجل تأبينا، أي: مدحه بعد موته وبكاه"[4].

وقد كانت العرب في الجاهلية من عادتهم:" أن يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه". أي: الإشادة بالميت ومناقبه. وكأن الشاعر لا يبكيه من أجل القرابة ورابطة الدم، بل يبكي فيه

---

[1] التعازي والمراثي لأبي العباس محمد يزيد المبرد حققه وقدم له محمود الديباجي دار صادر، بيروت، ط1، دمشق، 1396 هـ /1976م- ط2 بيروت 1412هـ/1992م ص10 و88.

[2] الرثاء، شوقي ضيف، ص235.

[3] أساس البلاغة الزمخشري، ص01.

[4] لسان العرب ابن منظور (مادة رثى)

نموذج المروءة وكل ما يرتبط بها من كرم ووفاء، وما فيه من قيم خلقية[1]، وقال أبو الأسود الدؤلي في تأبين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

فَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَخَيَّسَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

وَمَنْ لَبِسَ النِّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا ... وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِي وَالْمَئِينَا[2]

العزاء:

هو النمط الثالث من الرثاء وأصله الصبر، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، "وهو مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين"[3].

وقد عرفه الزمخشري (-538 هـ) بقوله: "لها عدة معان: واستعز بالرجل إذا أصيب بعزاء، وهي الشدة من مرض أو الموت أو غير ذلك"[4].

---

[1] الرثاء، شوقي ضيف، ص54.

[2] مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبي الحسن بن علي المسعودي، تقديم حسين السويدي، الجزائر، 1989، ج2، ص329.

[3] الرثاء، شوقي ضيف، ص06.

[4] أساس البلاغة الزمخشري، مادة عزز، ص300.

فهو مرحلة يتجاوز البكاء والوصول إلى مرحلة التأمّل في حقيقة الموت والحياة. وفي ذلك تقول الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي .:. عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي ولكن .:. أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي [1]

قال أبو حس المدائني*:" كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثوابا ولا يخشون عقابا، يتحاضّون على الصبر ويعرفون فضله. ويعيرون بالجزع أهله، إيثار للحزم وتزينا بالحلم، وطلبا للمروءة، وفرارا من الإستكانة إلى حسن العزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك فيه". ويقول في هذا الصدد دريد بن الصمّة في مرثية أخاه عبد الله:

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُصِيبَاتِ حَافِظٌ .:. مَعَ الْيَوْمِ أَذْبَارَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى إِذَا شَابَ رَأْسُهُ .:. وَأَمْكَنَهُ حِلْمًا قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ [2]

وقال كذلك المبرد (288-هـ) "و تعزيتك الرجل تسليتك إياه، والعزاء هو السلو و حسن الصبر على المصائب .... الرضي بقضاء الله ...." [1] ضف إلى هذا، أبلغ جواب جسد التعزية

[1] ديوان الخنساء اعتنى به حمدو طماس. دار المعرفة، بيروت، ط4، 1430 هـ/2009م، ص72.

* علي محمد بن عبد الله (152-225هـ) بصري المولد والمنشأ صار إلى المدائن فنسب إليها وهو عالم اختباري جليل.

[2] التعازي والمراثي، المبرد ص4 و5.

هو جواب متمم بن نويرة، إذ قال له عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: "لو ذدت أنك رثيت أخي بما رثيت به أخاك، فقال متمم: يا أبا حفص: لو أعلم أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته، قال عمر رضي الله عنه: "ما عزّاني أحد بمثل تعزيتك[2]."

أي أن أخاه كان من الشهداء وبذلك فمثواه الجنة لا حاجة لرثائه.

ومن أحسن التعازي إبلاغ في إيجاز قال أبو حسن:" ومن أحسن ما سمعنا في ذلك عن أبي الحكم اللثي عن شيبة بن نصاح قال: "لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم صرخت أسماء بنت عميس، فنادى منادي من ناحية البيت يسمعون حسّه ولا يرون شخصه: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، أ على رسول الله تبكون؟.....قالت أسماء: ما على رسول الله صلى الله عليه وسلم نبكي.. ولكن على انقطاع الوحي عنا. قال﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[3] إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل مرزئة....إلخ فهي تعزية فيها معنى الثواب الذي يكون بالإيمان بالله وابتغاء مرضاته والصبر على قضائه وقدره.

---

[1] التعازي والمراثي المبرد ص4.

[2] نفسه ص10 و11.

[3] سورة آل عمران:185.

وكذلك من جميل العزاء والبكاء في صبر وتجلد على ما أصابها قول جليلة بنت مرة الشيبانية زوجة كليب التي لم تجد بعد قتل أخيها لزوجها سوى التعزية عنه وعن مصيبتها العظمى:

يَا قَتِيلًا قَوَّضَ الدّهر بِهِ .:. سَقْفَ بَيْتِي جَمِيعًا مِنْ خَلِ

هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثَه .:. وَانْثَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الأَوَّلِ

خَصَّنِي يَوْمَ كُلَيْبٍ بِلَظَى .:. مِنْ وَرَائِي وَلَظَى مُسْتَقْبَلِي

لَيْسَ مَنْ يَبْكِي لِيَوْمَيْهِ كَمَنْ .:. إِنَّمَا يَبْكِي لِيَوْمٍ قَدْ خَلَّى

يشتفي المدرك بالثّأر وفي .:. دركي ثأري ثُكْلٌ مُثْكِلِي

إِنَّنِي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَة .:. فلعلّ الله أنْ يرتاح لي[1].

[1] المفيد الغالي في الأدب الجاهلي، د.زبير دراقي. ديوان المطبوعات الجامعية، دط ،دت ،ص74.

من صور الرثاء:

رثاء الأهل والمقربين : قد تفنن الشعراء في فن الرثاء فأعطوا صورا كثيرة، حيث يدخل في هذا الجانب كل الأهل: الأبناء والآباء والزوجات والأجداد...إلخ، ومن ذلك قول المهلهل في رثاء أخيه وائل الملقب بكليب الذي قتله جساس، وشبت من أجله حرب البسوس التي دامت 40 سنة:

كُلَيْبُ لَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا .:. إِنْ أَنْتَ خَلَّيْتَهَا فِي من يخَلِّيهَا

كُلَيْبُ أيُّ فتى عِزٍّ وَمَكْرمة .:. تَحْتَ الصَّفاة الّتي يعلوك سافيها

نَعى النُّعَاة كُلَيْبا لي فَقُلْتُ لَهُمْ .:. سالت بنا الأرض أو زالت رواسيها[1]

ومنه كذلك رثاء أبو ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد حيث قال رثاء في أبنائه الخمسة وقد سقطوا واحدا بعد الآخر:

أين المنون وريبها تتوجع .:. والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمَةُ ما لجسمك شاحبا .:. منذ ابْتُذِلَت ومثل مالِكَ يَنْفَعُ

فَأَجَبْتُهَا أما لجسمي أَنَّهُ .:. أَوْدَى بَنِيَّ من البلاد فَوَدَّعُوا

[1] المفيد الغالي في الأدب الجاهلي. د.زبير دراقي، ص74.

أَوْدَى بَنِي وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً .:. بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُقْلِعُ

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ .:. وَأَخَالُ أَنِّي لَا حِقٌ مُسْتَتْبَعُ

وَلَقَدْ حَرِصْتُ بِأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُ .:. فَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا .:. أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا .:. سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهِيَ عُورٌ تَدْمَعُ

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ .:. أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ[1]

وقال ابن حميدس يرثي أباه:

سَقَى اللهُ قَبْرَ أَبِي رَحْمَةً .:. فَسُقْيَاهُ رَائِحَةٌ غَادِيَة

وَسَيَّرَ عَنْ جِسْمِهِ رُوحَهُ .:. إِلَى الرَّوْحِ وَالْعِيشَةِ الرَّاضِيَة

فَكَم فِيهِ مِن خُلُقٍ طَاهِرٍ .:. وَمِن هِمَّةٍ فِي العُلَى سَامِيَة[2]

وقال في رثاء ابنة له:

[1] أدب العرب في عصر الجاهلية دكتور حسين الحاج حسن ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط2، منقحة ومزيدة، 1417 هـ/1997م، ص149.

[2] ديوان ابن حميس، صححه وقدم له الدكتور احسان عباس، جامعة الخرطوم، دار صادر بيروت، دط، 1379 هـ / 1960م، ص522.

نَنَامُ مِنَ الأَيَّامِ فِي غَرَضِ النَّبْلِ .:. وَنُغْذِي بِمُرِّ الصَّابِ منها فنستحلي

وَقَدْ فَرَغَتْ لِلْقَوْمِ فِي غَفَلَاتِهِمْ .:. حتُوفٌ بهم تُمْسِي وَتُصْبِحُ فِي شُغْلِ

أَرَى العَالَمَ الْعُلْوِيَّ يَفْنَى جَمِيعُهُ .:. إِذَا خَلَتِ الدُّنْيَا مِنَ العَالَمِ السُّفْلِي

وَيَبْقَى عَلَى مَا كَانَ مِنْ قَبْلِ خَلْقِهِ .:. إِلَهٌ هَدَى أَهْلَ الضَّلَالَةِ بِالرُّسْلِ

وَيَبْعَثُ مِنْ تَحْتِ التُّرَابِ وَفَوْقَهُ .:. نشورًا، إليه الفضل، يَالَكَ مِنْ فَضْلِ

أرى الموت في عيني تخيل شَخْصُهُ .:. ولي عُمُرٌ فِي مثله يَتَّقِي مِثْلِي

وَكَادَتْ يَدٌ مِنْهُ تَشُدُّ عَلَى يدي .:. وَرِجْلٌ لَهُ بِالْقُرْبِ تَمْشِي عَلَى رجلي[1]

وفي مقام آخر يقول في رثاء ابن أخته:

خَطْبٌ يَهُزُّ شَوَاهِقَ الْأَطْوَادِ .:. صَدَعَ الزَّمَانُ به حصاةَ فُؤَادِي

وَمُصِيبَةٌ حَزَّ المَصَائِبِ عِنْدَهَا .:. بَرْدٌ بِحُرْقَتِهَا عَلَى الْأَكْبَادِ

وَكَأَنَّهَا الْأَحْشَاءُ من حسراتِها .:. يُجْذَبْنَ بَيْنَ بَرَاثِنِ الْآسَادِ

كُبَرُ الدَّوَاهِي زَلَّتْ بجلولها .:. قَزَمًا، لَقَدْ قَرَعَتْ قَرِيعَ أَمَادِي[1]

---

[1] المرجع السابق ،ص364.

وقال في رثاء جارية له ماتت غريقة في الموكب الذي عطب به في خروجه من الأندلس إلى إفريقية:

أيا رشاقة غُصْنِ ٱلبَانِ مَا هَصَرَكْ .:. وَيَا تألُّفَ نظم الشمل من نثرك

ويا شؤوني وشأني كُلُّهُ حَزَنٌ .:. فُضّي بواقيتَ دَمْعِي واحبسي دُرَكْ

ما خلفتْ قلبي وتبريحي يُقَلِّبُهُ .:. إلَّا جَنَاحَ قُطَاةٍ في اعتقال شَرَكْ

لَاصَبْرَعَنْكِ وَكَيْفَ الصَّبرعنك وقد .:. طوالك عن عينيَ الموجُ الذي نشرك

هلاَّ، وروضةُ ذاك الحسنِ ناضرةٌ ، .:. لا تلاحظُ العينُ فيها ذابلاً زَهرَك

أَمَاتَكِ ٱلبَحْرُ ذُو التَّيَّارِ من حَسَدٍ .:. لَمَّا دَرَى الدرُّ منه حَاسِدًا ثغرك

وقعت في الدمع إذا أغرقت في لجج .:. قد كاد يغمرني منه الذّي غمرك

أي الثلاثة أبكي فَقْدَهُ بدمٍ .:. عميمَ خُلقِكَ معناكِ أم صِغَرُكْ[2]

[1] نفسه ،صفحة 119.

[2] ديوان ابن حمديس،ص131.

وكذلك قول سلمى بنت المهلهل في رثاء أبيها:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَافِحِ .:. عَلَى فَارِسِ الْفُرْسَانِ فِي كُلِّ صَافِحِ

أَعَيْنَيَّ إِنْ تُغْنِ الدُّمُوعُ فَأَوْ كِفَا .:. دَمًا بِإِرْفِضَاضٍ عِنْدَ نُوحِ النَّوَائِحِ

أَلَا تَبْكِيَانِ الْمُرْتَجَى عِنْدَ مَشْهَدٍ .:. يُخِيرُ مَعَ الْفُرْسَانِ نَفْعَ الْأَبَاطِحِ

عَدِيًّا أَخَا الْمَعْرُوفِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ .:. وَفَارِسَهَا الْمَرْهُوبَ عِنْدَ التَّكَافُحِ

رَمَتْهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى انْتَظَمْنَهُ .:. بِسَهْمِ الْمَنَايَا إِنَّهَا شَرُّ رَائِحِ

وَقَدْ كَانَ يَكْفِي كُلَّ وَغْدٍ مُوَاكِلٍ .:. وَيَحْفَظُ أَسْرَارَ الْخَلِيلِ الْمُنَاصِحِ

كَأَنْ كَمْ يَكُنْ فِي الْحَيِّ حَيًّا وَلَمْ .:. تَرُعْ إِلَيْهِ مُهَاةُ النَّاسِ أَوْ كُلُّ رَائِحِ

بَكَيْتُكَ إِنْ يَنْفَعْ وَمَا كُنْتُ بِالَّتِي .:. سَتَسْلُوكَ يَا ابْنَ الْأَكْرَمَيْنِ الْجَحَاجِحِ[1]

[1] شاعرات العرب ،لعبد البديع صقر، منشورات المكتب الإسلامي، ط1، 1967، صفحة 170.

رثاء الشخصيات:

وهو نوع يخص العلماء والحكام والأمراء والشخصيات البارزة ومنه كذلك ما ورد في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيمايلي أمثلة عن ذلك: قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، ترثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

مَنْ لِنَفْسٍ حَادَهَا أَحْزَانُهَا .:. وَلِعَيْنٍ شفَّها طُولُ السُّهُدْ

جَسَدٌ لُفِّفَ فِي أَكْفَانِهِ .:. رَحْمَةُ اللهِ عَلَى ذَاكَ الْجَسَدْ

فيه تَفْجِيعٌ لِمَوْلَى غَارِهِ .:. لَمْ يَدَعْهُ اللهُ يَمْشِي بِسَبَدْ[1]

وقال ابن حمديس يرثى الشاعر الزكرمي:

أَيَا خُلَجَ الْمَدَامِعِ لَا تَغِيضِي .:. وَذُوبِي غَيْرَ جَامِدَةٍ وَفِيضِي

فَقَدْ قُلِبَ التَّأَسِّي بِالرَّزَايَا .:. أَسًى مَلَأَ التَّرَاقِيَ بِالْجَرِيضِ

أَرَاكَ عَلَى الرَّحِيلِ بِأَرْضِ مَحْلٍ .:. فَقِيرَ الرَّحْلِ مِن زَادٍ مَرِيضِ

فَدَعْ أَشَرَ الْجَمُوحِ وَكُنْ ذَلِيلًا .:. لِعِزِّ اللهِ كَالْعُودِ الْمَرُوضِ[2]

---

[1] ديوان الحماسة تأليف أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق:د.عبد المنعم أحمد صالح، سلسلة خزانة التراث، دار الثقافة العامة، آثار عربية،دط،دت، ص318.

[2] ديوان ابن حمديس، ص294.

وقال يرثي القائد ابا الحسن علي بن حمدون الصنهاجي:

بكى فقدك العزّ المؤيّد والمجد .:. وناحت عليك الحرفة والضمر الجرد

وقد ندبتك البيض والسمر في الوغى .:. وعدّدك التأييد والحسبة العدّ

وما فقدت إلاّ عظيما وفقدُهُ .:. به بين أحشاء العلى يُوجَدُ الوجد[1]

وقال ابن رشيق في رثاء أبي عبد الله محمد بن عباس الانصاري المعروف بالخوّاص:

الله باقٍ وكُلُّ مالِكٌ مودي .:. والموتُ ليس على حالٍ بمَرْدُودِ

فانظُرْ وإنّكَ في الدُّنيا على خطَرٍ .:. ما يفعَلُ الدَّهرُ في صُمِّ الجَلامِيدِ

وقد رماها العَنا في دارِ غِبطَتِهِ .:. إذا استفادَ بلىً منها بتجديدِ

هذا مُحَمَّدُ المحمودُ أجمعُهُ .:. قد خلَّفَ الدهرَ فينا غيرَ محمودِ

أودى ابنُ عبّاسٍ الثّاني ووارثُهُ .:. دُنيا وعِلمًا وفضلًا غيرَ مجحودِ[2]

وقال يرثى أبا إسحاق التونسي:

ليسَ الّذي صحبَ الزّمانَ ببَاقِي .:. والخلقُ كُلُّهُمُ إلى الخلّاقِ

---

[1] ديوان ابن حمديس ،ص173.

[2] ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه وحققه وشرحه د.محي الدين ديب، إشراف ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، ط1، 1418هـ/1998م، ص70.

يَا لِلرَّزِيَّةِ فِي أَبِي إِسحاقِ .:. ذَهَبَ الزَّمَانُ بِأَنْفَسِ الْأَخْلَاقِ

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِخَاشِعٍ مُتَبَتِّلٍ .:. تبكي العُيُونُ عَلَيْهِ بِاسْتِحْقَاقِ

ذَهَبَ الْحِمَامُ بِبَدْرِ ثمَّ لَمْ يَدَعْ .:. مِنْهُ التُّقَى إِلَّا هِلَالَ محاقِ[1]

قال الحكم بن ثابت السّعدي في الرثاء وليّ نعمته الأمير الأغلب بن سالم التّميميّ:

لَقَدْ أَفْسَدَ ٱلْمَوْتُ ٱلْحَيَاة .:. غداة غدا للموت في الحرب معلما

تَبَدَّتْ لَهُ أم المنايا، فأقصدت .:. فتى حين يلقى الموت في الحرب صمَّمَا

أتته المنيَّةُ في القنا فاخْتَرَمْنَهُ .:. وغَادَرْنَهُ في ملتقى الخيل مسلمَا[2]

قال المتنبّي يرثى أخت سيف الدّولة:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ .:. كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

أَجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَى مُؤَنَّثَةً .:. وَمَنْ دَعَاكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلعَرَبِ[3]

---

[1] نفسه ص105.

[2] الشعر المغربي، من الفتح الغسلاني إلى نهاية الإمارات الإغليبية والرسمية والإدريسية (30هـ/230هـ)، د.العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية ،دط دت ،ص62.

[3] زهر الآداب وثمر الألباب لأبي اسحاق غبراهيم بن على الحصري القيرواني،ج 1، دار الفكر العربي، ط2، عارضه بمخطوطات القاهرة على محمد البحاوي،دت، ص361.

رثاء النفس:

إذا كان الإنسان قد بكى غيره، فنفسه أولى بالبكاء كلما أحس باليأس ودنو الأجل. فهذا مالك بن الريب يرثي نفسه بعد أن استشعر قرب وفاته وهو بعيدعن أهله في خرسان قال:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ ابيتن ليلة .:. بجنب الغضا ازجي القلاص النّواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه .:. وليت الغضا ماشي الركاب لياليا

وفي مقام آخر يقول بكربن حماد التهرتي في مقطوعة يرثي بها نفسه، حيث كان قد أشرف على الموت، مصورا حالته في القبر، سائلا المولى عز وجل الغفران:

غفلت وحادي الموت في أثري يحدو .:. فإن لم أرحْ ميتًا فلا بدَّ أنْ أغدو

أرى عمري ولّى ولم أترك المُنى .:. وليس معي زادٌ وفي سفري بُعد

أنعّم جسمي باللّباس ولينه .:. وليس لجسمي من قميص البلى بدُّ

كأنّي به قد مدَّ في برزخ البلى .:. ومن فوقه ترب ومن تحته لحد

وقد ذهبت تلك المحاسن واصمحت .:. فلم يبق فوق العظم لحمٌ ولا جلدٌ

عسى غافرَ الزّلات يغفر زلتي .:. فقد يغفرُ المولى إذا أذنب العبدُ

أنا الفردُ عند الموت والفرد في البلى .:. وأبحث فردًا فارحم الفردَ يا فردُ[1]

[1] رسالة ماجستير، قصيدة الرثاء في الشعر الزائري القديم بين القيم الموضوعية والقيم الفنية من الفتح إلى نهاية الدولة الزيانية للطالب محمد بوعلاوي 2007/2006، ص26.

أما السلطان أبو حمو موسى الزياني فندب شبابه في أبيات نظمها بمناسبة الإحتفال بالمولد النبوي الشريف سنة 760هـ قال فيها:

نَامَ الْأَحَبَابُ وَلَمْ تَنَمْ .:. عيني بمصارعة النّدم

والدّمعُ تَنْحَدِرُ كالدّيم .:. جرحَ الخدّين فَوَا أَلَمِي

وَزَجَرْتُ النَّفْسَ فما ازدجرت .:. ونهَيْتُ القلب فلم يرع

ونذير الشيب قد وافى .:. وحلول الشيب من الصرع

وقال كذلك:

يا نفس خدعت بزخرفها .:. كم ذا تنتر بها وكم

يا رب ذنوبي قد عظمت .:. فامنن بعفوك لمجترم

فالعفو إلاهي منك وإن .:. الذنب وحقك من شيمي

إني بذنوبي معترف .:. والخوف أشد من الألم

ولكم أعصيك وتسترني .:. يا ذا الأفضل وذا الكرم[1]

نلحظ شوق وحنين ليوم الشباب بعد أن انقضى عمره كالحلم،مقرا بذنبه طالبا العفو والمغفرة من الله سبحانه وتعالى، فلكم عصى وستره.

[1] أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره. تأليف عبد الحميد حايات. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،دط، 1394هـ/ 1974م، ص341. 342.

رثاء المدن والمماليك:

عرف الأدب العربي هذا الغرض في شعره ونثره، وهو لون من التعابير الذي يعكس التقلبات السياسية التي تجتاح إحدى مراحل الحكم.

وهذا اللون لم يعرف عند الجاهلي، وذلك لكثرة تنقله وترحاله، وقد عرف أكثر في العصر العباسي "الأندلسي" حيث ازدهر في الاندلس وذلك لطبيعة التقلبات السياسية، ففي هذه المرحلة قد اشتدت المواجهة بين المسلمين والصليبيين. كما يقوم هذا الغرض ألا وهو رثاء المدن على مقارنة بين الماضي والحاضر أي ماضي العز والمجد وحاضر الذل والهوان.

يقول ابن شهيد* في رثاء قرطبة بعد الفتنة التي قامت بها عام 304 هـ :

مَا فِي الطُّلُولِ مِنْ الأَحِبَّةِ مخبِرُ .:. فمن الّذي عن حالها نَسْتَخْبِرُ

جار الزّمان عليهم فتفرّقوا .:. في كلّ ناحية وباد الأكثر

جرت الخطوب في محلّ ديارهم .:. وعليهم فتغيّرت وتغيّروا

فلمثل قرطبة يقلّ بكاء من .:. يبكي بعين دمعها متفجّر

* ابن الشهيد: هو أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن شهيد الأندلوسي القرطبي، أبو عامر من بيت علم ورياسة، عاش أيام العاصفة التي عصفت بالأندلس مدة 25سنة، وكان من نوابغ الأندلس، توفي في قرطبة عن 44 سنة.

دار أقال الله عثرة أهلها .:. فتبرّبروا وتغرّبوا وتمصّروا

فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُم .:. مُتَقَطِّر لِفِرَاقِهَا مُتَحَيِّرُ

عَهْدِي بِهَا وَالشَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ .:. مِنْ أَهْلِهَا وَالْعَيْشُ فِيهَا أَخْضَرُ

ورياحٌ زهرتها تلوح عليهم .:. بروائحٍ يفتر منها العنبر

والدّار قد ضرب الكمال رواقه .:. فيها وباع النقص فيها يقتصر

والقصر قصر بني أمية وافر .:. من كل أمر والخلافة أوفر

والجامع الأعلى يغص بكل من .:. يتلو ويسمع ما يشاء وينظر

ومسالك الأسواق تشهد أنها .:. لا يستقل بسالكيها المحشر

يا جنة عصفت بها وبأهلها .:. ريح النوى فتدمرت وتدمروا

آسي لك من الممات وحق لي .:. إذ لم نزل بك في حياتك

أيام كانت عين كل كرامة .:. من كل ناحية إليها تنظر

أيام كانت كف كل سلامة .:. تسموا إليها بالسلام وتبدر [1]

يقول أبوا البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

فَلَا يُغِرْ بِطِيْبِ العَيْشِ إِنْسَانُ .:. لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ

[1] ديوان ابن شهيد الأندلوسي ورسائله، جمعه وحققه وشرحه الدكتور محي الدين ديب، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ص76. 77.

من سره زمن ساءته أزمان .:. هي الأمور كما شاهدتها دول

شَانٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا .:. وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى وَاحِد

أَكَالِيلٌ وَتِيجَانٌ وَأَيْنَ مِنْهُمْ .:. أَيْنَ ٱلْمُلُوكُ ذو التِّيجَانِ من يمن

وإبن ما ساسه في الفرس ساسان .:. شاده شداد في إرم وأين ما

وقال ابن رشيق يرثي القيروان:

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كِرام سادةٍ .:. بِيضِ الْوُجُوهِ شَوَامِخِ الإِيمَانِ

مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الدِّيَانَةِ وَالتُّقَى .:. لله في الإسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ

وَمُهَذَّبٍ خِمِّ الفَضَائِلِ بَاذِلٍ .:. لِنَوَالِهِ وَلِعِرْضِهِ صَوَّانِ

وَأَئِمَّةٍ جَمَعُوا الْعُلُومَ وَهَذَّبُوا .:. سُنَنَ الحَدِيثِ وَمُشْكِلَ القُرْآنِ

عُلَمَاءَ إِنْ سَاءَلْتَهُمْ كَشَفُوا العَمَى .:. بِمَقَالَةٍ وَفَصَاحَةٍ وَبَيَانِ[1]

رثاء مدينة الجزائر:

قال الشاعر أحمد الزواوي:

دَعِ الْجَزَائِرَ لَا تَحْلُلْ بِسَاحَتِهَا .:. فِي ذَا الزَّمَانِ وَلَا تَنزِلْ بِوَادِيهَا

[1] ديوان ابن رشيق القيرواني ص143- 144.

كِدْنَا لِأَجْلِ حُلُولِ العَادِثَاتِ بها .:. نختار، الله، للسكنى بوادِيها

من بعد عيش هنى عم ساكنها .:. وبعد عافية حلت بناديها

وحل ماضرها من أهلها نفرٌ .:. هم في الحقيقة أضحوا من أعاديها

مدَّ الإله عليها ظلَّ عافيةٍ .:. مثلُ الَّتي قد رأتها في مباديها[1]

رثاء قلعة بني حماد:

ومن الحواضر التي رثاها الشعراء "قلعة بني حماد" التي اختطها حماد الصنهاجي عام (398هـ - 1007م) وبنى بها "الكوكب" و"السلام" وقد رثاها ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي (548 هـ - 628 هـ) (1154م – 1231م) من سلالة بني حماد أمراء "القلعة" و"بجاية":

أين العروسان لا رسمٌ ولا طللٌ .:. فانظر ترى ليس إلا السَّهْلُ وَالجَبَلُ

وقصرُ بلارة أودى الزّمان به .:. فأين من شاء منه السَّادة الأوَّلُ.[2]

[1] رسالة ماجستير، قصيدة الرثاء في شعر الجزائري القديم ص63.

[2] إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش، طبع وإشهار داود بريكسي، تلمسان، ط2، 2005م، ص173.

الفصل الأول

الفصل الأول

ترجمة الشاعرين

المبحث الأول:

- ترجمة الخنساء

مولدها ونسبها
حياتها
مقتل أخيها معاوية
مقتل أخيها صخر
شعرها
وفاتها

المبحث الثاني:

- ترجمة الشابي

مولده ونسبه وتعلمه
شعره وديوانه
زواجه
وفاة والده
مرضه ووفاته
من أعماله

إسمها، مولدها، ونسبها:

الخنساء هي تماضر:

أما الخنساء فلقبها لا إسمها، وهو مؤنث الأخنس من الخنس وهو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الارنبة وهي صفة مستحبة، أكثر ما تكون في الظبأ وفي البقر الوحشية[1]، وكان العرب يسمون المرأة التي على هذه الشاكلة بالخنساء.

وقال فريق ثان إنها سميت بالخنساء لأنها كانت تخنس من الناس، أي تختفي منهم حين يشتد بها البكاء، وذلك باعتبار لفظة الخنساء مشتق من الخنوس، وهو الإختفاء بعد الظهور، ومنه لفظة الخناس التي ذكرها الله وتعالى في سورة الناس:" ...من شر الوسواس الخناس...".

وصف الشيطان لأنه يخنس أي يختفي إذا ذكر اسم الله عز وجل[2].

أما تماضر فهو اسمها ومعناه البيضاء أو البياض[3].

---

[1] الخنساء منتخبات شعرية، فؤاد افرام البياني، ط7، لأيلر 1981 دار المشرق، ص201.

[2] عباقرة خلدون الخنساء تأليف محمد كامل حسن المحامي، المكتب العالمي للطبعة والنشر والتوزيع ،دط،1996 ص49.

[3] الخنساء منتخبات شعرية ص201.

وعلى هذا تكون الشاعرة هي تماضر بنت عمر بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرؤ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر[1]. واسمها الحقيقي كما قلنا هو تضامر.

ولدت شاعرتنا العربية ولم يؤرخ لذلك ،لأنه لم تكن وثائق تسجل مثل هذه الأحداث.

وقد حاول الكثير من الباحثين المعاصرين تحديد ذلك اليوم، وقد اختلفوا في ذلك حرجا من اتخاذ يوم تعوزه الأدلة. وقد جعل المستشرق جبرييلي تاريخ الولادة سنة 575م. وتبعه من العرب الأب لويس شيخو اليسوعي، والأستاذ افرام البستاني، أما غرنباوم يقرر أنها عاشت في النصف الأول من القرن السابع الميلادي "7م".2.

أما بنت الشاطئ فلم تتكلف بالبحث عن يوم مولدها وذلك خوفا من التيه[2] وكان أهلها أهل الشريد أشهر المسلمين في الجاهلية وظلوا كذلك في الإسلام مدة طويلة[3]. حيث كان أبوها من أوسع العرب ثراء وله مكانته المرجوة في قومه، حيث رزق باثنين من الأبناء هما

[1] كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ا،ج15، ص54.

[2] المصدر السابق، ص5.

[3] الخنساء منتخبات شعرية ص201.

صخر ومعاوية وكانت بذلك الخنساء "تضامر" ابنته الصغرى فماتت أمها وجعلت من نفسها أما وأختا رغم صغرها ومرد ذلك لكي لا يتزوج أبوها إمرأة أخرى[1].

فولدت الخنساء وانتقلت من طفولتها إلى صباها إلى شبابها ولا شيء جدير بالانتباه غير جمالها وحسبها، حيث كان لذلك الأثر في تكوين شخصيتها، حيث قيل أنها لقبت بالخنساء تشبيها لها بالبقرة الوحشية في جمال عينيها.[2]

حياتها:

فكما رأينا سابقا أن الخنساء كان على قدر من الجمال والعقل والحزم حتى أنها عدت من شهيرات النساء، ومثل هذه الشخصية يخشاها المتغزلون، فلم يتجرأ شاعر على ذكر شيء تنقله الألسن.

كانت الخنساء في أول فتوتها لما رآها دريد بن الصمة، وقد اختلفت الروايات في قص الحادثة، المهم أنها رفضت الزواج به رغم كل الوسائط. وسبب ذلك أنه رآها عارية تستحم فدفعه جسمها الجميل إلى طلب يدها. فقال فيها:

---

[1] عباقرة خالدون الخنساء ص49-50.

[2] إتمام الوفاء في معجم ألقاب الشعراء الدكتور سامي مكي العاني، مكتبة لبنان، ط3،دت، ص37.

حَيُّوا تُمَاضُرَ وَاضْرَبْعُونَ صَحْبِي .:. وقفوا فإنَّ وُقُوفَكُمْ حَسْبِي

أَخُنَّا مَنْ قَدْ هَامَ الْفُؤَادَ بِكُمْ .:. وَأَصَابَهُ ثَبْلٌ مِنْ الْحُبِّ

مَا إنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِهِ .:. كَاليوم طَالِيَ أَيْنَقِ جُرْبِ

متبدِّلًا تَبْدُو محاسِنُه .:. يَضَعُ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ [1]

ولما توسط أخوها معاوية قالت:

أَتُكْرِهُنِي، هُبِلْتَ، على دريد .:. وقد أصفحتُ* سيِّد آل بدر.[3]

فمن هذا البيت يتضح أنها رفضت خطيبا قبل دريد وهو من بني بدر، وقد أصرت على رفض دريد ولم يعارضها أبوها عكس ما كان في ذلك الوقت، فهنا تظهر قوة شخصية الخنساء وحرية الإختيار.

أما عن زواجها فقد تحدثت كثير من الروايات عن ذلك، وقد ذكر لنا أكثر من ثلاثة أزواج وهم: الرواحي وعبد الله العزى ومرداسا، وقد اختلفوا في ترتيب أزواجها. والمحقق من الأخبار

[1] شاعرات العرب عبد البديع صقر- منشورات الكتب الإسلامية، ط1، 1967، ص96.

* اصفحت: أي رددت.

[3] الخنساء منتخبات شعرية، ص2004.

ما نقلته بنت الشاطئ أن صاحب هذه الاسماء المختلفة هو شخص واحد هو الرواحي السلمي عبد العزى بن عبد الله بن رواحة[1].

وعليه فزواج الخنساء كان من بني سليم أبناء عمومتها وهو رواحة بن عبد العزيز السلمي، رزقت بطفل معه هو عبد الله المكنى بأبي شجرة[2]، إلا أن تجربتها هاته باءت بالفشل، وسبب ذلك مرده أن زوجها كان مولعا بلعب الميسر.

لتتزوج بعدها برجل من بني سليم هو: مرداس بن أبي عامر السلمي، حيث كان رجلا كريم الأخلاق ورزقت معه بثلاثة أبناء هم : يزيد، معاوية وعمر، وكما رزقت بابنة اسمتها عمرة فقد ورثوا عنها موهبة الشعر وشبوا على مبادئها الرفيعة[3].

مقتل أخيها معاوية:

ذكر أن معاوية وافى عكاظ في موسم من المواسم، فبينما هو يمشي، إذ لقي أسماء المرية وكانت جميلة، ورغم أنها كانت بغيا، فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت: "أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة؟ فقال: أما والله لأقارعنه عنك. قالت: شأنك وشأنه"،

---

[1] ديوان الخنساء، ص9.

[2] عباقرة خالدون: الخنساء، ص56.

[3] عباقرة خالدون: الخنساء ص58.

فرجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له فقال هاشم: "فلعمري لا يريم أبياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده...وخرج معاوية بن عمرو غازيا يريد بني مرة وبني فزارة في فرسان أصحابه من بني سليم حتى إذا كان بمكان يدعى الجوزة دومت عليه طير ونسح له ظبي فتطير منهما ورجع في أصحابه.

وبلغ ذلك هاشم بن حرملة فقال:" ما منعه من الإقدام إلا الجبن ولما كانت السنة المقبلة غزاهم حتى إذا كان في ذلك المكان منح له ظبي وغراب فتطير منهما فرجع ومضى أصحابه، وتخلف تسعة عشر فارسا لا يريدون قتالا فوردوا ماءا فرأتهم امرأة من جهينة فأتت هاشم بن حرملة فأخبرته...فنادى هاشم في قومه وخرج...فاقتتلوا ساعة وانفرد هاشم ودريد ابن حرملة الريان لمعاوية، فاستطرد له أحدهما فشد عليه معاوية وشغله واغتره الآخر فطعنه وقتله.[1]

[1] كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني- تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 2002، ج15، ص62. 63.

مقتل أخيها صخر:

وروى أبو عبيدة عن أبي بلال بن سهم أنه قال:" اكتسح صخر أموال بني أسد وسبى نساءهم فأتاهم الصريخ فتلاقحوا بذات الأثل فاقتتلوا قتالا شديدا. فطعن ربيعة بن ثور الأسيّ صخرا في جنبه، وفات القوم فلم يقعص وجوي منها ومرض قريبا من حول حتى مله أهله. فقال: فسمع صخر امرأة وهي تسأل سلمى امرأة صخر: كيف بعلك؟ فقالت سلمى: لا حي فيرجى ولا ميت قينعى، لقينا منه الأمرّين".

وزعم أنّ صخرا حيث سمع مقالة سلمى امرأته قال:

أرى أمّ صَخْرٍ لَا تَمَلُّ عِيَادَتِي .:. وملت سُلَمى مضجعي ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازة .:. عليك ومن يبن يغترُّ بالحدثان

أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه .:. وقد حيل بين العير والنّزوان

لعمري لقد نبّهْتِ من كان نائما .:. وأسمعْتِ من كان له أُذُنَان[1]

إلى آخر القصيدة، فهذه الأبيات تبين مدى تأزم صخر وحزنه لما سمع ما صدر من زوجته.

وفي رواية أخرى، أنّه أراد قتلها فطلب سيفه فلم يطق حمله، فقال البيت:

[1] كتاب الأغاني لأبي فرج الاصفهاني ص55. 56.

"أهمُّ بأمر الحزم...."[1].

فلما طال به البلاء، وقد نتأت قطعة من الكبد في جنبه موضع الطعنة، قالوا له لو قطعتها لرجونا أن تبرأ. فقال: شأنكم، فأشفق عليه بعضهم فنهوه، فأبى وقال الموت أهون عليّ ممّا أنا فيه، فقطعوها فيئس من نفسه.

وعليه، فقد جعل الأب شيخو مقتل الأول نحو: 612م والثاني نحو: 615م وجاراه على ذلك المستشرق غبريالي.[2]

إسلامها:

كان لظهور القرآن حدثا عظيما، غيّر معالم الحياة العربيّة التي سادت في العصر الجاهليّ، وذلك بما حمله من قيّم إنسانيّة جديدة، وتم له جمع شتات القبائل المتناحرة وجعل منها خير أمّة أخرجت للنّاس. ودَأَبَ على استئصال طبائع الجاهلية جاعلا مدار التفاضل بين الناس على التّقوى والعمل الصالح.

[1] الخنساء منتخبات شعرية، ص212.

[2] نفسه ص213.

والقرآن الكريم الذي تنزلت آياته على الرسول صلى الله عليه وسلم، مبشرا العالمين بقيمة الرّفيعة، وكان كتاب العرب الاوّل، قد أعجز الفصحاء، كما كان معجزا في أسلوبه لهذا أخذت الجاهليّة الروعة بهذا الاسلوب الجديد.

وإن الخنساء كما عرفنا مسبقا من أهل نجد عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام وبذلك تكون شاعرة مخضرمة عاشت الجاهلية والإسلام.

حيث كانت قبل اعتناقها الدين الإسلامي، تذكر الله تعالى كثيرا في قصائدها لأنها لم تكن تؤمن بالأصنام ومن ذلك مثلا قولها:

لَا شَيْءَ يَبْقَى غَيْرَ وجه مليكنا .:. ولست أرى شيئًا على الدَّهر خالدا[1]

فأدركت الإسلام ووفدت على النبي صلى الله عليه وسلم واسلمت مع بنيها الاربعة، وكان الرسول الكريم يعجب بشعرها ويقول:" هيه خناس"[2].

وقد تأثرت ببلاغة القرآن الكريم التي لا نظير لها، وظهر ذلك في بعض القصائد مثلا قولها في مقتل أخيها:

---

[1] عباقرة خالدون: الخنساء ص73.

[2] شاعرات العرب عبد البديع صقر، ص97.

فَخَرَّ الشَّوَامِخُ مِنْ قَتْلِهِ .:. وَزَلْزَلَتِ الارض زلزالها

أَبْعَدَ ابْنِ عمرو من آل الشريد .:. حَلَّتْ به الأرض اثقالها[1]

ومع اسلامها إلّا أنّها ظلت حبيسة أحزانها وآلامها. فذهب إليها عمر بن الخطاب فسألها أن تتقي الله. فقالت:" يا أمير المؤمنين إنّي أبكي على أبي وخيري مضر صخر ومعاوية"[2]. فكأنّ عمر رضي الله عنه رقّ لها فقال: ما ألومك في البكاء عليهما. كما قيل أنها ذهبت مرّة في موسم الحج، ولما بدأت في الطواف تذكّرت أخويها فاشتدّ حزنها وبدأ تلطم وتبكي، فرآها عمر بن الخطاب فأمرها بالصبر وحاولت ذلك فقالت:

صَرِيقِي مِنْ دُمُوعِك أَوْ افِيقِي .:. وَصَبْرًا، إِنْ أَطَقْتِ وَلَنْ تُطِيقِي

وَإِنِّي وَالْبُكَاء مِنْ بَعْدِ صَخْرٍ .:. كَسَالِكَةٍ قَصْدَ الطَّرِيقِ

وَلَكِنِّي وَجَدْتُ الصَّبْرَ خَيْرًا .:. مِنَ النَّعْلَيْنِ وَالرَّأْسِ الحَلِيقِ[3]

من هنا نلاحظ بأنها حاولت التضرّع بالصّبر كما نصحها أمير المؤمنين، وأنّه خير مفتاح من العادات الجاهليّة المتمثّلة في حلق الشّعر وضرب الرّأس بالنّعل حزنا على العزيز.

---

[1] عباقرة خالدون، الخنساء ص74.

[2] شرح ديوان الخنساء ، أبو عباس ثعلب، قدّم له وشرحه فايز محمّد، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ،دط، دت ،ص218.

[3] عباقرة خالدون: الخنساء، محمد كامل حسن المحامي ص77. 78.

والدليل على حسن إسلامها أنّها أوصت أبناها يوم معركة القادسيّة بالجهاد وقائلة:" يا بني إنّكم لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا الاّ هو إنّكم بنو إمرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين، واعلموا أن الدّار الباقية خير من الدّار الفانية، يقول الله عز وجل في محكم التّنزيل:" يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلكم تفلحون". فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجعلت نارا على أوراقها. فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الفلك والمقامة".

ولما بلغها خبر مقتلهم قالت:" الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربيّ أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته".

فهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على صبرها وثباتها وحسن يمانها.

شعرها:

إنّ للخنساء ديوانا شعريّا كلّه في رثاء اخويها، ولا سيما صخرا، حيث يشعر من يقرأه أنّه في مأتم يسمع فيه عويل النّائحات، وهو ديوان يوضّح أنّها أصبت في الصّميم، ففقدت سيّد الرّجال الفارس المغوار، وهي في رثائها هذا تصوّره بحبّ اخويّ قويّ وصادق[1].

وقد حفظ العديد من المسلمين أقوالها، ومازالوا إلى ان أتاهم جامعوا الشّعر القديم في أوائل القرن 18م. فألّفوا ديوان الخنساء، الّذي قام بشرحه عدد من العلماء المشاهير منهم: ابن السكّيت، ابن الأعرابي، الثّعالبي. وقد حُفظت شروحهم في نسختين للدّيوان كتبهما: العاصمي والكرماني سنة 224هـ - 839م.[2]

وفاتها:

قد شكّلت الخنساء تضاربا في الآراء وجدلا شائكا بين المؤرخين، فاختلفوا في ميلادها وأُرجع سبب ذلك عدم شهرتها، وتخالفت المرويات حول عدد أزواجها، وماتت وما كان بأحسن من ميلادها. فمن قائل كانت وفاتها 646م وهو يوافق 26هـ. إلى قائل في أوّل خلافة سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه ،وحدّدها البعض سنة 24 هـ . وقد حدّدها الشيخ محمد

[1] أروع ما قيل في الرثاء: إميل ناصيف- دار الجيل بيروت، ط2، دت ،ص13.

[2] الخنساء منتخبات شعرية، فؤاد افرام البستاني، ص216. 217.

محي الدّين عبد الحميد بنحو سنة 50 هـ. أما لويس شيخو فقد حدّد سنة وفاتها عام 680 م.[1]

ولا نعلم عن ذلك شيء ،فهناك رأي آخر وهو ما رواه علقمة بن جرير لمعاوية من أنّه شاهدها في البادية في عرس ابنتها عمرة، وهي ملتفّة بكساء أحمر، وقد هرمت. لهذا مالوا إلى القول بوفاتها في خلافة معاويّة، نحو سنة 664م[2].

ولعلّ هذا الاختلاف في تحديد سنة وفاتها راجع إلى خلوّ حياتها من مستجدّات تستحق التّقصّي ،فالبحث في تاريخها قد توقّف عند استشهاد أبنائها في حرب القادسيّة، فها قد ماتت الخنساء بعد أن وصلت الآفاق بشهرتها، وأبكت العيون بشعرها.

[1] ديوان الخنساء- اعتنى به وشرحه، محمد وطماس، ص12.

[2] الخنساء منتخبات شعرية ص216.

ترجمة الشابي

مولده ونسبه وتعلمه:

ولد أبو القاسم الشابي نهار الأربعاء في الرابع والعشرين من شباط عام ألف وتسعمائة وتسعة (909م)[1]، بالشابيّة في الجنوب التّونسي[2] في بلدة توزر التّونسيّة. من أب أزهريّ التّكوين وزيتونيّ الثّقافة حيث كان رجلا صالحا، فوالده من خرّيجي الأزهر، وبه درس أوّلا، فأقام بمصر في أوائل هذا القرن سبع سنين، ثم درس بتونس بجامع الزّيتونة سنتين، حمل في نهاية ذلك على التّطويع.ـــ هي إجازة نهاية الدّراسة بالكليّة الزّيتونيّة في ذلك العصرـــ اشتغل قاضيّا في عديد البلاد التونسيّة، فكان يقضي يومه بين المحكمة والمسجد والمنزل فنشأ الولد البكر أبو قاسم في كنف رعايته يقتبس من عمله. فكان رحمه الله صادق التّقى، قويّ العقيدة، غيور على الإسلام، فقال الشاعر متحدّثا عن أبيه:" إنّه أفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلّمني أن الحقّ خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود"[3]. وهو لم ينشأ في مسقط رأسه وسبب ذلك مردّه إلى ترحال والده عبر الأقطار التونسيّة وتعيينه كقاضي. وقد استغرقت جولة الأسرة

---

[1] شعرائنا. ديوان أبو قاسم الشابي ورسائله. قدم له وشرحه مجيد طراء، دار الكتاب العربي- بيروت دط ،1424هـ 2004. ص 9.

[2] قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون. د.عبد السلام المسدي، الشركة التونسية للتوزيع،دط، 1984، ص14.

[3] ديوان أغاني الحياة ضبط وشرح د.إميل كبا، دار الجيل، ط.ج.م، 2002م، ص7. 8.

عشرين سنة، ضربت في بحرها بالبلاد التونسيّة طولا وعرضا، متنقّلة من قابس إلى سليانة فتالة، ومن مجاز الباب إلى رأس الجبل فزغوان. وبين هذه المدن من الأميال ما يقدّر بالمئات أحيانا، وعلى نسبة ذلك اختلاف العادات واللّهجات والمشاعر الطبيعيّة. فلم تكن واحة قابس كبسائط مجاز الباب يغمرها الحصيد، ولا هذه كبساتين رأس الجبل أو كجبل زغوان يكسوه شجر الصنوبر، ولم يكن حر قابس كثلوج تالة، ولا حياة الفلاحين بمجاز الباب كحياة صيّادي البحر بقابس أو رأس الجبل، ولاطباع

الشمال كطباع أهل الجنوب[1]. وإذا كان هذا التّرحال قد حرمه من الإستقرار في المدرسة الواحدة، فقد أكسبه خيالا متوثّبا وغذّى ذاكرته بصور البيئة التونسيّة المتنافرة وعمّق تجربته الشعريّة[2]، فأطلقه من حدود البيئة الضيّقة وأكسبه تونسيّة إنسانيّة الآفاق[3].

وقد أخذ الوالد على نفسه مسؤوليّة تعليم ابنه في البيت حتّى بلغ الخامسة من عمره، ثمّ أرسله إلى الكُتّاب في بلدة "قابس" في مطلع عام 1914م* وانتقل غلى العاصمة لما بلغ من عمره 12اثنتي عشرة سنة وذلك للالتحاق بجامع الزيتونة و هده الاخيرة آنذاك كانت بمثابة الازهر

[1] ديوان أغاني الحياة، ضبط وشرح، دإميل كبا، ص8.

[2] ديوان أبي قاسم الشابي ورسائله قدم له شرحه، مجيد طراد، ص9.

[3] ديوان أغاني الحياة،ص8.

* في سنة 1914 انتقل الوالد إلى العيش في قابس

في مصر او النّجف في العراق و قد استطاع والده ان يؤمّن له مسكنا متواضعا يبيت الطلبة، الاّ انّ الشّاعر لم يكن راضيا على تلك الاقامة كما انّه لم يكن مباليا الى الدّروس التّي كانت تلقى ، فالمنهاج لم يكن يتضمّن دراسة الآداب و العلوم العصريّة ،ضف الى هذا ان شيوخه لم يكونوا راضيين عن تطرّفه و شذوذه و هذا كلّه لم يمنعه من تكوين ثقافة واسعة جمع بين الادب العربي القديم . وبين روائع الادب الحديث في البلاد العربية و ديار المهجر[1].

و رغم طموح شاعرنا بغد مشرق إلاّ أنّه لم يكن متقنا للغات الأجنبيّة .ولكن تمكّن بفضل مطالعاته الواسعة من استيعاب ما تنشره المطابع العربيّة عن آداب الغرب و حضارته. و كانت أوّل نشراته في الصّفحة العربيّة التي كانت ترتبها النّهضة كلّ اثنين سنة 1342هـ-1926م،في عام 1927 تخرّج من الزّيتونة و نال اجازة "التّطويع"، لكنّه وبسبب عدم اتّفاق اراءه مع اراء شيوخه. قرر بعد مراجعة والده ان يلتحق بكلية الحقوق[2].

[1] ديوان أبي اللقاسم الشابي ورسائله، ص10.

[2] ديوان أغاني الحياة، ص8. 9.

شعره وديوانه :

إنّ شخصيّة الشّابي قد تكوّنت بسرعة وذلك راجع الى انّه كان ملما بجميع الثقافات و العادات و كان مطالعا لكتب الادب العربي. هذا ما جعله يقول الشّعر في سنّ مبّكرة.

فقصيدة " يا حبّ، التّي أتيت في الدّيوان نظمها سنة 1342هـ - 1923م وقد وصف صديقه الأستاذ زين العابدين السّنوسي طريقته في وضع قصائده. فقال: "إذا رجعنا إلى أدبائنا المعاصرين عرفنا أن المرحوم أبا القاسم الشّابي لم يكن يستنزل الشّعر، ولكنّه كان يفيض عليه مهاجمة تمنحه الراحة والنوم. فيصوغ القصيدة بيتا بيتا ويتهجّى كلّ واحدة، بمفردها في ليلة وظلامه الدّامس. ولا تفارقه تلك الحال حتىّ يستفرغ ما جاش بضميره شعرا محكما. ثم ينام كأنّما نزع عن ظهره عبئا...إلخ.[1] وفي أحد مقالاته يصف الشّابي الشّعر فيقول:" الشّعر ما تسمعه وتصبره في ضجة الرّيح، وهدير البحار، وفي نسمة الورد الحائر يدمدم فوقها النّحل، ويرفرف حولها الفراش، وفي النّغمة المردّدة يرسلها الفضاء الفسيح..."[2]. فهذا كله ينطبق على الشّعر الرّومانسي فهو شاعر وجداني في إطار مذهب الرومانسيّة إضافة إلى أنه من جماعة أبولو.

[1] ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، ص16.

[2] ديوان أغاني الحياة، ص8.

وظهر شعره مجموعا في المجلّد الأوّل من الكتاب "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر"[1]. وفي صيف 1934 شرع الشابي في جمع ديوانه الذي أسماه "أغاني الحياة" إلاّ أن المنيّة حالت دون ذلك فتولى أخوه محمد الأمين الشّابّي طبع الدّيوان، وما يلفت النّظر أن الشّابي كان على شيء من النّضج جعله ينجز ديوانه خلال ثمانية سنوات أو عشر على الاكثر وهو صغير السّن[2].

زواجه:

أقدم الشّابي على الزّواج قبل تخرّجه من كليّة الحقوق وذلك في عام 1928م، إنّ الشابي لم يكن حازما على الزّواج لكنّه أراد أن يلبّي رغبة والده الفاضل الذي كان يريد أن يتّخذ لنفسه –أي إبنه– عرق الخلود وبقاء، فضحّى بنفسه من أجل ذلك. وقد تضاربت الآراء حول ما إذا كان هذا الزّواج ناجحا أم لا. ولكن لو تتبّعنا ديوانه الضّخم لا نرى بأن الشاعر كان سعيدا في زواجه هذا،لأنّه لم يذكر شيئا من عطفها وحنانها في هذا الإنجاز العظيم_ديوانه_ وقد رزق من زوجته بولدين.[3]

---

[1] نفسه، ص9.

[2] ديوان أبي القاسم ورسائله ص15.

[3] ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله ، ص11.

وفاة والده:

توفي والده في شهر أيلول من عام 1929م[1]. ولقد رافقه عليلا من بلد زغوان إلى توزر مسقط رأسه. وتجرّع غصص مرضه، وطفحت الكأس بموته وهو في الخمسين من عمره[2]، وبذلك كانت أكبر نكبة يتعرض لها الشّابي وساهمت في ظهور أعراض مرضه.

[1] نفسه ص12.

[2] ديوان اغاني الحياة، ص9.

مرضه ووفاته:

في نفس سنة وفاة والده أصيب بداء تضخم القلب وهو في الثانية والعشرين من عمره، ولم يتوقف عن عمله الفكري رغم تحذير الأطباء له، ولم يكن الشاعر المريض يغادر توزر إلّا في الصيف ويقصد المصطافات الجبلية وكذلك المشروحة ببلاد الجزائر سنة 1933م وشرع في مصيف سنة 1934م في جمع ديوانه "أغاني الحياة" لكن الظروف كانت أقوى منه فقد اشتد مرضه، وقصد تونس 26 أغسطس 1934.[1] وتوفي في التاسع أكتوبر عند الساعة الرابعة صباحا من نهار الاثنين 1934، ونُقل جثمانه في ذلك اليوم إلى توزر ودُفن بها. وقد نال الشّابي بعد وفاته عناية كبرى، وتألفت عام 1946م لجنة لإقامة ضريح له نقل رفاته إليه باحتفال مهيب في 13 ايار 1946 حضره جمع غفير من رجال العلم والآداب والسياسة[2].

[1] ديوان أغاني الحياة، ص9. 10.

[2] ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، ص15.

آثار الشابي (من أعماله):

خلف الشابي الشاعر التونسي عدة آثار أصبحت كدليل للباحثين من بعده منها:

في المقبرة: ذكرها زين العابدين بن السنوسي في الأدب التونسي ص207، كما ذكرها أبو قاسم محمد كرو في آثار الشابي وصداه في الشرق صفحة 29 ولم يتأكد من وجودها بين آثاره.

السكير: ذكرها محمد بو رقعة في مجلة الثريا عدد 41. أفريل 1950 ص7. وذكرها محمد كرو في آثار الشابي وصداه في الشرق ص29،ولعلها المنشورة في الأعمال الكاملة بعنوان "المأساة".

مذكرات الشابي: الدار التونسية للنشر، طبعة 1 تونس 1966.

اليقظة الإسلامية: ذكره محمد العليوي في كتابه "مع الشابي" صفحة 126، وقد أشار إليه الأستاذ أبو قاسم محمد كرو في آثار الشابي وصداه في الشرق دار المغرب /تونس ط2، بيروت، خريف 1988 صفحة 23. وكان الأستاذ الهادي المطوي قد نشره أيضا في مجلة "الهداية الإسلامية".

"الخيال الشعري عند العرب": تقديم زين العابدين السنوسي، طبعة بإشراف الشابي وعلى نفقته الخاصة.

رد على النقد: مقال رد فيه نقد مختار الوكيل لكتاب الخيال الشعري عند العرب – أبولو عدد 10 صفحة 1172 جوان 1933.

أغاني الحياة: دار مصر للطباعة القاهرة طبعة 1-1955-هي أول طبعة لديوان الشابي. بإشراف وتقديم شقيقة محمد الأمين الشابي، ونشر دار الكتب الشرقية بتونس[1].

[1] موسوعة الشابي، دليل الباحثين عن الشابي، إعداد وتقديم أبو القاسم محمد كرو، 10، ط1، 1999، دار صادر بيروت، ص21إلى28.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

دلائل الرثاء والحزن

المبحث الأول:

الخنساء شاعرة الرثاء

المبحث الثاني:

الشابي شاعر الحزن في عصره

من مرثيات الشابي

الخنساء شاعرة الرثاء:

كما رأينا وقلنت سابقا أن الخنساء هي شاعرة مخضرمة عاشت الجاهلية والإسلام، لعل هذا هو الشيء الذي ساعدها على النبوغ في قول الشعر وكما هو معروف أن الخنساء لم يعرف لها شعر قبل مقتل أخويها، وحتى وإن كان هناك شعر لم يصلنا ولم تتناوله العرب ولم ينتبه له عشاق الشعر آنذاك. ومنه نلخص إلى أن شهرة الخنساء اكتسبتها جراء نحيبها على أخويها ورثاءها فالتأريخ لشعرها الدامي يبدأ من وفاة صخر خير فرسان بني سليم.

فقد اعتبر عدد من الدارسين المحدثين، أن من ابرز مظاهر التجديد عند بن أبي ربيعة، انصرافه إلى الغزل فقط. غير أنهم لم ينتبهوا أن الخنساء قد كانت سباقة لذلك فهي الأخرى قد قصرت شعرها على غرض واحد ووحيد ألا وهو الرثاء[1].

وروى بعضهم أن الشاعر جريرا الذي كان يعتز بنفسه وبشعره اعتزازا كبيرا قال عن الخنساء:" لولا الخنساء، لكنت أشعر الناس[2]" فذلك اعتراف على تمكنها من غرضها الشعري هذا – الرثاء– ومن الوقائع المتفق عليها، ما وقع بين الخنساء والنابغة الذبياني، تضرب له قبة حمراء

[1] الخنساء شاعرة الرثاء، محمد حمود، دار الفكر اللبناني، ط1، 1993، ص39.

[2] عباقرة خالدون: الخنساء، محمد كامل حسن المحامي ص63.

بسوق عكاظ. وذلك لاعتباره أخبر العرب بالشعر، فكان الشعراء يلقون عليه اشعارهم ويحدد منزلة كل قصيدة

فأنشده الأعشى ابو بصير، ثم حسان بن ثابت ثم الشعراء حتى جاءت الخنساء السلمية فأنشدته، فقال لها النابغة:" والله لولا أبا بصير أنشدني آنفا لقلت أنك أشعر الجن والإنس[1]". وفي رواية أخرى أنه قال لها:" لولا أن هذا أعمى أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم"[2]. ولما سمع حسان ذلك غضب وقال:" والله لأنا أشعر منها" فقبض النابغة بيده وقال للخنساء أنشديه....فأنشدها حسان قائلا:

وَلَنَا الجَفَنَاتِ الغُرِّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى .:. وَأَسْيَافنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دما

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وابني مُحَرِّقٍ .:. فأكرَمَ بِنَا خالًا وأكرمَ بِنَا ابنا

فنقدته الخنساء في ثمانية مواضع فقالت:" قلت لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشرة، فعللت العدد. ولو قلت: الجفان لكان أكثر. وقلت: الغر والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتساعا، وقلت: يلمعن واللمعان شيء يأتي بعد شيء، ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان. وقلت: بالضحى، ولو قلت بالدجى لكان أبلغ

[1] الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص261.

[2] عباقرة خالدون: الخنساء، ص69.

لأن الضيف أكثر طروقا بالليل وقلت اسيافنا، والاسياف دون العشرة، ولو قلت: سيوف لكان أكثر الإنصاب الدم. وقلت: دما والدماء أكثر الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك" فقام حسان منكسرا.[1]

واستهلت الخنساء قصيدتها التي أعجب لها النابغة:

قَذًى بِعَيْنَيْكِ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوَّارُ .:. أَمْ ذَرَفَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

تسأل الخنساء عينها إذ كان بها عوار، وهو مرض يصيب العين فيجعلها تذرف الدموع دون انقطاع، مرده الدار التي خلت من أهلها.

ثم تقول:

كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ .:. فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِدْرَارُ

تَبْكِي لِصَخْرٍ هِيَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَلِهَتْ .:. وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أَسْتَارُ

ثم تقول:

تَبْكِي خُنَاسٌ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا .:. إِنْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

ومن أبيات الشعر التي جعلت الشاعر جرير يعتبر الخنساء أشعر العرب نساء و رجالا قولها:

[1] الخنساء منتات شعرية، ص221.

إِنَّ الزَّمَانَ مَا يُغْنِي لَهُ عَجَبٌ .:. أَبْقَى لَنَا ذَنَبًا وَاسْتُؤْصِلَ الرَّأْسُ

أَبْقَى لَنَا كُلَّ مَبْهُولٍ وَفَجَّعَنَا .:. بِالْحَالِمِينَ مِنْهُمْ هَامٌ وَأَرْمَاسُ

إِنَّ الجَدِيدَيْنِ فِي طُولِ اخْتِلَافِهِمَا .:. لاَ يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ[1]

كما تضيف بنت الشاطىء على كل هذا، عن ما جاء في ترجمة عدي بن حاتم الطائي الذي وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: يا رسول الله إن فينا أشعر الناس وأسخى الناس وأفرس الناس، فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم أن يسميهم قال: " أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد -يعني أباه- وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكر" فقال عليه والصلاة والسلام:" ليس كما قلت يا عدي! أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو وأما أسخى الناس فمحمد وأما أفرس الناس فعلى بن أبي طالب"[2]. فهذا اعتراف بمعنى الكلمة. وليس وراء هذا مطلب. وكان الشعبي يعتبرها أشعر نساء الجاهلية لقولها:

وقائلة والناس قد فات خطوها .:. لتدركه، يا لهف نفسي على صخر

ألا ثكلت أم الذين غدوا به .:. إلى القبر، ماذا يحملون إلى القبر

[1] عباقرة خالدون، ص65. 66. 69. 70.

[2] الخنساء شاعرة الرثاء، د. محمد حمود، دار الفكر اللبناني، ط1، 1993، ص69.

وقد أجمع العديد من الشعراء أنها لم تكن قبلها وبعدها أشعر منها، ولم يشذ عن ذلك سوى الأصمعي وعبد الملك بن مروان اللذين فضلا عليها ليلى الاخيلية[1]، وفي هذا الصدد استهل البستاني "روائعه" عن الخنساء فقال:" أشهر شواعر العرب على الإطلاق ومن أشهر الرثائين رجالا ونساءا".[2]

وفي رثاءها قال المبرد:" من أحسن المراثي ما خلط فيه مدح بتفجيع على المرثي فإذا أوقع ذلك بكلام صحيح، ولهجة معربة، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين، وكذلك رثاء الخنساء". فهو أصدق ما وصل إلينا من الشعر العربي في نوعه، وأخلصه عاطفة في التعبير عن الحزن العميق والالم الحاذ وذلك لأن الشاعرة هي امرأة وافرة العواطف، لا تصغي إلا لنبظات قلبها الجريح وأكثر ما نراها في تعداد صفات – صخر- غير منتبه لتنظيمها، وهمها في ذلك هياج الحزن بتجديد الذكرى، فهي شاعرة أكثر منها ناظمة، وهذا ما يرفعها في درجة عالية من الرثاء[3].

[1] الخنساء، عبد الرحمان عائشة "بنت الشاطئ" دار المعارف، مصر 1957، من ص52 إلى 54.

[2] الخنساء شاعرة الرثاء، ص71.

[3] الخنساء منتخبات شعرية، ص218. 219.

وقد استمرت تماضر في قول رثائها حتى بعد اعتناقها الإسلام، وكذلك مما يدل على أنها شاعرة رثاء حقا، أنها أبكت عيون العديد من العرب وأحزنت قلوبهم بما تقول من تفجع مثل الحادثة التي وقعت في موسم الحج التي ذكرت فيما قبل.

كذلك يقول بعض المؤرخين إن الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قابلها مرة أخرى فوجدها مقرحة العينين من كثرة البكاء، وما لبثت أن أنشدته بعض ما قالت في أخويها فتأثر عمر بن الخطاب فقال لمن حوله:" مسكينة، فإنها لا تزال حزينة...."[1].

ومن الروايات أنها ذات مرة دخلت على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعليها صدار من شعر فقالت لها عائشة:" يا خنساء إن هذا لقبيح، قبض رسول الله عليه وسلم فما لبست هذا"[2]. وفي معنى ما قالت أنها كانت متزوجة فذهب مال زوجها فلجأت إلى أخيها صخر فقسم ماله معها، وأعادت الكرة مرة أخرى وفعل ذلك فهنا تظهر علاقتها بأخيها صخر وسبب تعلقها به.

فكما كان صخر في حياته ملجأ الخنساء، يزيل عنها شكايتها ويمسح عليها آلامها كان بعد موته ملجأها كذلك، خفف عنها ما كبتت في نفسها من الأحزان.[3] كما أنها كانت تقف

[1] عباقرة خالدون: الخنساء، ص78. 79.

[2] الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص262.

[3] ديوان الخنساء، إعتنى به وشرحه محمد وطماس، ص10.

بالموسم فتسوم هودجها بسومة، وتعاظم العرب بمصيبتها وتنشدهم فتبكي الناس، ثم قالت الخنساء بعد ذلك:" كنت أبكي لصخر من القتل فأنا أبكي له اليوم من النار". فتقول:

أَشُمُّ أَبْلَجَ بِأتمّ الهداة به .:. كأنّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ[1]

وأكبر دليل على أنها شاعرة رثاء هو ديوانها الضخم الذي تناولت فيه غرض الرثاء دون سائر الأغراض الأخرى. ونورد في ذلك مثال وهي تبكي صخرا:

يُؤَرِّقُنِي التَّذَكُّرُ حِينَ أُمْسِي .:. فَأُصْبِحُ قَدْ بُلِيتُ بِفَرْطِ نُكْسِ

عَلَى صَخْرٍ، وَأَيُّ فَتًى كَصَخْرٍ .:. لَيَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ خِلْسِ

وَلِلْخَصْمِ الْأَلَدِّ إِذَا تَعَدَّى .:. لِيأْخُذَ حَقَّ مَظْلُومٍ بِقِنْسِ

فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رُزْءًا لِجِنٍّ .:. وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رُزْءًا لِإِنْسِ

أَشَدَّ عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ أَيْدًا .:. وَأَفْصَلَ فِي الْخُطُوبِ بِغَيْرِ لَبْسِ

وَضَيْفٍ طَارِقٍ أَوْ مُسْتَجِيرٍ .:. يُرَوِّعُ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ جَرْسِ

فَأَكْرَمَهُ وَآمَنَهُ فَأَمْسَى .:. خَلِيًّا بَالُهُ مِنْ كُلِّ بُؤْسِ

[1] الشعر والشعراء، ص263.

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا .:. وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي .:. عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَلَكِنْ لَا أَزَالُ أَرَى عَجُولًا .:. وَبَاكِيَةً تَنُوحُ لِيَوْمِ نَحْسِ

أَرَاهَا وَالهًا تَبْكِي أَخَاهَا .:. عَشِيَّةَ رُزْئِهِ أَوْ غِبَّ أَمْسِ

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ .:. أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

فَلَا وَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ حَتَّى .:. أُفَارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقَّ رَمْسِي

فَقَدْ وَدَّعْتُهُ يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ .:. أَبِي حَسَّانَ لَذَّاتِي وَأُنْسِي

فَيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَلَهْفَ أُمِّي .:. أَيُصْبِحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي [1].

لقد ماتت الخنساء وبقي شعرها اليتيم الدامي، حيث اتفق علماء الأدب على أنه لم تكن امرأة قبل الخنساء اشتهرت مثل شهرتها. وقد قال عنها عدة كتاب أنها شاعرة الرثاء والبكاء وعلى رغم مما حفل به تراثنا الشعري من روائع المرثيات اعتلت الخنساء عرش الرثاء دون منازع، حتى بات اسمها مقترنا بفن الرثاء على الإطلاق.

[1] ديوان الخنساء، ص71 و72.

الشابي شاعر الحزن الحاذ:

إن الشابي هو أحد الشعراء المعاصرين الذين لم يعمروا طويلا، ولكنه ترك بصمته في العالم العربي التي لا تزال خالدة حتى وقتنا الحالي. ولا يخفى علينا أن الشابي قد تربى في بيت علم وجاه.

وأنه كان شاعرا رومانسيا كثير الإطلاع على كتابات المهجريين حيث أنه تأثر بأفكار العقاد. وكان يقال عليه تلميذ جبران فهذا الأخير ترك طابعا واضحا في كتابات الشابي.

وبما أن الشاي كان رومانسيا، فاسمى وسيلة للرومانسيين للوصول إلى الآخرين هو الحزن في كلامهم وليس اي حزن، ينبغي أن يكون مؤثرا في الطرف الآخر. فكان الصوت الباكي الحزين، أحب الأصوات إلى القلوب[1] لأنه يحمل في حزنه وبؤسه. صوت الحياة والواقع المعاش مشكلا عصارة محتواها الأسى والألم الحاذ، فحزنه هذا كان نتيجة تفكيره المستمر بشعبه المستعبد من طرف الإستذمار الفرنسي والمستسلم لأفكاره والمكبل بقيود القديم غير مساهم في الركب الحضاري والشعبي قدما كل ذلك جعلنا نقول عليه شاعر الحزن العميق.

ويستحضرنا في ذلك قوله وهو يحاول أن يقارن بين حاله في زمن الطفولة وحاله في شبابه حيث يقول:

---

[1] الشابي جبران، ص36.

بالأمسِ قَدْ كَانَتْ حَيَاتِي كَالسَّمَاءِ البَاسِمَهْ

وَاليَوْمَ قَدْ أَمْسَتْ كَأَعْمَاقِ الكُهُوفِ الرَّاجِمَهْ[1]

أي كانت حياته صافية مطمئنة وامست عابسة مظلمة، وكذلك قوله في مقام ثان:

قَدْ كُنْتُ، فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ وَالسَّذَاجَةِ وَالطُّهورْ

أَحْيَا كَمَا تَحْيَا البَلَابِلُ وَالْجَدَاوِلُ وَالزُّهُورْ

وَاليَوْمَ أَحْيَا مُرْهَقَ الأَعْصَابِ مَشْبُوبَ الشُّعُور

هذا مصيري، يا بني أمي، فما أشقى المصير!

هذه هي الحطمة الكبرى التي يعانيها الشابي في نفسه وجسمه وهذه هي الآلام التي يغرق في بركانها، لقد رافقته هذه الآلام منذ صباه آلام شعبه وآلام جسمه، وكأني بالوجود كله قد تجمع ألما في كيانه، وكان يتشاءم إلّا أن ذلك لم يطفئ جذوة الأمل فمن هذا التضاد أي التشاؤم والأمل انبثقت شعريته في حلّتها الرومنسية المتألمة[2] فشعره بكاء ممزوج دموعه حرقة

[1] ديوان أغاني الحياة، ضبط وشرح دإميل كبا، ص77.

[2] الجامع في تاريخ الادب العربي، الأدب الحديث، حنا الفاخوري، دار اليل بيروت، 2005م/1426هـ، ص561.

وأمل. فكيفما قلبت ديوان الشابي تقع على أبيات حافلة بالحزن والالم فينطلق في عالم الطبيعة يمزج روحه بروحها، ويفيض لسانه بما يعتلج في عالمه من فلسفات[1].

فشعره هو صرخة او هو عبارة عن إخراج لتلك المكبوتات التي كان يجود بها خاطره، وهو متنفس لعواطفه المتألمة:

يا شعر، يا وحي الوجود الحيّ، يا لغة الملائك

غرّد، فأيّامي أنا تبكي على إيقاع نايك

وكما قلنا سلفا أن ديوان الشابي كله حزن وألمّ وإن لم تكن القصيدة كلها حزن فتلمحه في بيت او اكثر، وعليه قمن بتحديد أكثر القصائد حزنا وألما فاضت به خاطرته، فسنعرض عناوين القصائد مع مطلع كل واحدة منها:

أكثرت يا قلبي فماذا تروم:

يَا قَلْبِيَ الدَّامِي ! إِلَامَ الْهُجُوعُ؟

يا موت:

يَا مَوْتُ! قَدْ مَزَّقْتَ صَدْرِي ... وَقَصَمْتَ بِالْأَرْزَاءِ ظَهْرِي

[1] نفسه ص561.

قلب الأم:

يَا أَيُّهَا الطِّفْلُ الَّذِي قَدْ كَانَ كَاللَّحْنِ الْجَمِيلْ

وَالْوَرْدَةِ الْبَيْضَاءِ، تَعْبَقُ فِي غِيَابَاتِ الْأَصِيلْ

حديث المقبرة:

أَ تَفْنَى ابْتِسَامَاتُ تِلْكَ الْجُفُونِ؟ ... وَيَخْبُو تَوَهُّجُ تِلْكَ الْخُدُودْ؟

الجنّة الضائعة:

كَمْ مِنْ غُصُونٍ عَذْبَةٍ من عَدْوَةِ الوَادِي النَّضِيرْ

في سكون الليل:

أَيُّهَا اللَّيْلُ الْكَئِيبْ!

أيها الليل الغريب![1]

دموع الألم:

حسرات تهيجها الذّكريات ... ودموع تفيضها الشّهقات

[1] ديوان أبو القاسم الشابي، الشابي، دار العودة بيروت،حقوق الطبع محفوظة، أغسطس 1972م، ص290. 234. 325. 334. 361. 514.

الزنبقة الذاوية:

فيصدح عند سُكُونِ الدُّجَى .:. إذا نسيتنا عَذَارَى السَّمر[1]

الكآبة المجهولة:

أَنَا كَئِيبَة

أَنَا غَرِيبَة

كَآبَتِي خَالَفَتْ نَظَائِرَهَا

غَرِيبَةٌ فِي عَوَالِمِ الْحَزَنْ

كآبتي فكرةٌ مُغَرِّدَةٌ

أيها الليل:

أَيُّهَا اللَّيْلُ، يَا أَبَا الْبُؤْسِ .:. وَالْمضوْلِ، أَيَا هَيْكَلَ الْحَيَاةِ الرَّهِيبِ

شكوى اليتيم:

على ساحلِ البحرِ، أَنَّى يَضِجُّ .:. صُرَاخُ الصَّبَاحِ وَنَوْحُ المَسَا

السآمة

سَئِمْتُ الحَيَاةَ، وَمَا فِي الحَيَاةِ .:. وَمَا إِنْ تَجَاوَزْتُ فَجْرَ الشَّبَابْ

الدموع:

---

[1] المصدر السابق، ص525. 540 على التوالي

يَنْقَضِي الْعَيْشُ بَيْنَ شَوْقٍ وَيَأْسِ .:. وَالْمُنَى بَيْنَ لَوْعَةٍ وَتَأَسِّ[1]

أغنية الاحزان:

غَنِّي أُنْشُودَةَ الْفَجْرِ الضَّحُوكْ أَيُّهَا الصَّدَّاحْ!

فَلَقَدْ جَرَّحَنِي صَوْتُ الظَّلَامْ

أَلِفَا عَلَّمَنِي كُرْهَ الْحَيَاةْ

بقايا الخريف:

كَرِهْتُ الْقُصُورَ وَقُطَّانَهَا .:. وَمَا حَوْلَهَا مِنْ صِرَاعٍ عَنِيفْ

أغنية الشاعر:

يَا رَبَّةَ الشِّعْرِ وَالْأَحْلَامِ غَنِّينِي .:. فَقَدْ سَئِمْتُ وُجُوهَ الْكَوْنِ مِنْ حِينِ

صوت تائه

قَضَّيْتُ أَدْوَارَ الْحَيَاةِ مُفَكِّرًا .:. فِي الْكَائِنَاتِ مُعَذَّبًا، مَهْمُومَا

[1] ديوان أغاني الحياة، ضبط ونشر، إميل كبا، ص23. 26. 31. 48. 51.

نشيد الأسى:

يَا لَيْتَ شِعْرِي! هلْ .:. لِلَيْلِ النَّفْسِ مِنْ صُبحٍ قريبْ ؟

أغاني التائه:

كَانَ فِيْ قَلْبِي فَجْرٌ وَنُجُوْمْ .:. وَبِحَارٌ، لَا تُغَشِّيهَا الْغُيُومْ

إلى قلبي التائه:

مَا لِآفَاقِكَ يَا .:. قَلْبِيَ سُودًا حَالِكَاتْ [1]

صفحة من كتاب الدموع:

غنَّاه الأمْسُ وأَطرَبَهُ .:. وشَجاهُ الْيَوْمُ، فما غدُهُ؟

الاشواق التائهة:

يا صميمَ الحياةِ! إنّي وَحيدٌ .:. مُذْلَجٌ، تائهٌ، فأيْنَ شُروقُكْ؟

أحلام شاعر:

لَيْتَ لِي أَنْ أَعيشَ فِي هَذِهِ .:. الدّنيا، سَعيدًا بوَحْدتي، وانْفرادي!

[1] المصدر السابق ص: 52. 68. 70. 88. 90. 97. 99.

أبناء الشيطان:

أَيُّ نَاسٍ هذا الورَى؟ ما أَرَى .:. إِلَّا بَرايا شَقِيَّةً، مَجنونَهْ

شكوى ضائعة:

يَا لَيْلُ! ما تصنَعُ النَّفسُ التي سَكَنَتْ .:. هَذَا الْوُجُودَ، ومِنْ أَحْدائِها القَدَرُ؟[1]

فهذه على الأقل أكثر القصائد التي احتوت على ألم وحزن، وعليه فقد مات شاعرنا الشاب، وترك وراءه شعره الحزين الذي لا يزل محط إعجاب ونظرة الدارسين له.

من مرثيات الشابي:

من هذه القصائد التي قالها في غرض الرثاء، قصيدة قالها لما توفي والده بتاريخ الفاتح من أكتوبر ألف وتسعمئة وتسعة وعشرين، حيث قد نشرت هذه القصيدة في سنة 1930م فأثارت حفيظة دعاة القديم[2]. قال فيها:

يَا مَوت قد مزَّقْتَ صَدْرِي وَقَصَمْتَ بالأَرْزَاءِ ظَهْرِي؟

ورميْتَنِي مِنْ حالقٍ وَسَخِرْتَ منِّي أَيَّ سُخْرِ

[1] نفسه ص: 114. 121. 124. 123. 209.

[2] نشر الشابي، رسائله ومواقفه من عصره، إعداد وتقديم أبو القاسم محمد كرو ،5، دار صادر بيروت، ط1، 1999، ص380.

وفجعتني في من أُحِبُّ ومَنْ إليه أَبُثُّ سرّي[1]

والثانية هي مقطوعة بعنوان "الاعتراف" قالها لأول مرة في مجلة "أبولو"[2] معترفا فيها على أنه قد تخلى عن أحزانه، ومندفعا يلهو بأفراح الحياة، وهو فيها يتحدث عن أشجانه أكثر من حديثه عن أبيه فيقول:

ما كنت أَحْسَبُ بعدَ مَوتِكَ يا أبي ومشاعري عمياءُ بالأحزانِ

أنّي سأظْمَأُ للحياةِ، وأختسي مِنْ نَهْرِها المتوهّجِ النّشوانِ

وأعُودُ للدّنيا بقلْبٍ خافقٍ لِلْحُبِّ، والأفراحِ، والألحانِ[3]

كما توجد قصيدة ثالثة في غرض الرثاء وهي بعنوان "رثاء فجر" مؤرخة ب14-09-1931 أي بعد سنتين من تاريخ القصيدة الأولى، وقبل سنة ونصف من القصيدة الثانية. غير أن الشابي لم يحدد مقصودة بالفجر.[4]

حيث يقول في مطلعها:

---

[1] ديوان أغاني الحياة، ص103.

[2] نثر الشابي، رسائله ومواقفه من عصره، ص380.

[3] ديوان أغاني الحياة ص204.

[4] نثر الشابي، رسائله ومواقفه من عصره، إعداد وتقويم أبو القاسم محمد كرو ص381.

يا أيُّها الغَابِرُ المُنَمَّقُ بالأشعَّةِ والورودْ[1]

وهذا مجمل القصائد التي عرفها الباحثون عن الشابي التي قالها في هذا الغرض، غير أن الدكتور محمد كرو يقول:" غير أن الصديق العزيز الأستاذ الأديب محمد النخلي-شفاه الله، ومتعه بالصحة وطول العمر،- أطلعني منذ سنوات على قصيدة للشابي، بخطه، قالها في الرثاء الشيخ العلامة "محمد محمد النخلي"* وقد تفضل الصديق فأهداني هذه القصيدة في نسختها الأصلية، وهي فيما أعلم، غير منشورة، لأن ديوانه ولا في أي مكان آخر[2]" فيبدوا أن هذه القصيدة (المخطوطة) بعثت إلى أهل النقيد وهي بعنوان "دمعة أرسلتها عين الضمير"

[1] ديوان أغاني الحياة، ص138.

* الشيخ النظي توفي في شهر رجب 1342/فيفري 1924م.كان من كبار علماء الزيتونة، زعلى يديه تخرت أجيال من الطلبة.

[2] نثر الشابي، رسائله ومواقفه من عصره، ص382.

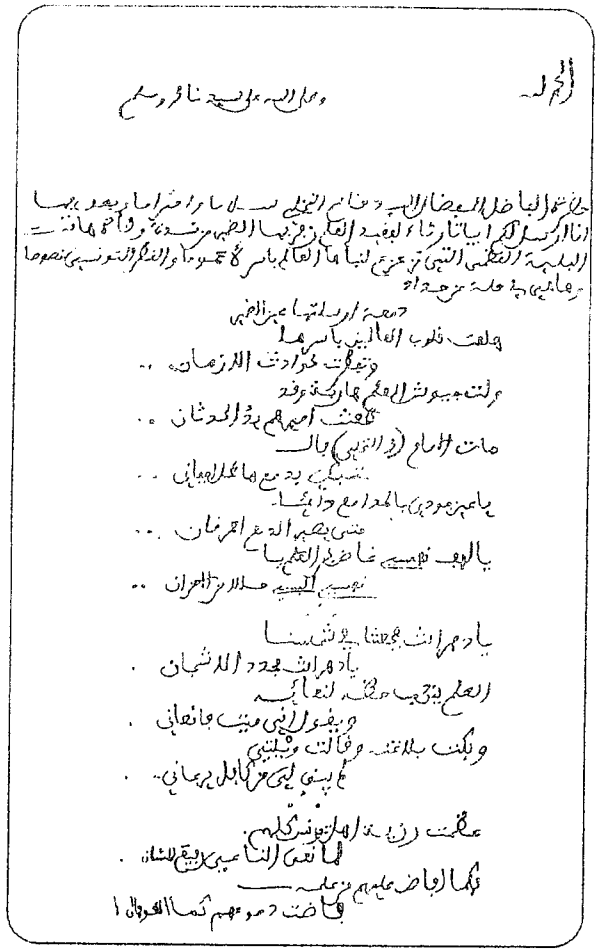

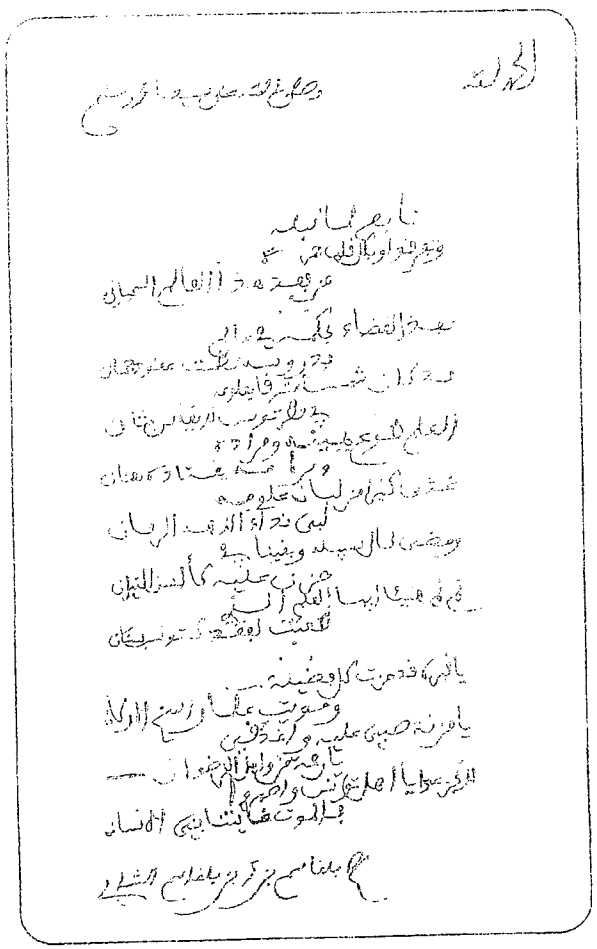

دمعة أرسلتها عين الضمير:

حضرة الفاضل المفضال السيد قاسم النخلي سلاما واحتراما وبعد فها أنا أرسل لكم أبياتا رثاء لفقيد القلم زفر بها الضمير من شدة وطأة هاته البلية العظمى التي تزعزع لنبأها العالم بأسره عموما والقطر التونسي خصوصا وها هي في حله من حداد:

هلعت قلوب العالمين بأسرها وتفطرت لحوادث الأزمان

ولت جيوش العلم هاربة وقد طعنت أميرهم يد الحدثان

مات الإمام (محمد النخلي) فالـ تبك بدمع هاطل أجفاني

يا عين جودي بالمدامع دائما حتى يصير الدمع أحمر قان

يا لهفة نفسي غاض بحر العلم يا نفسي البسي حلا من الأحزان

يا دهر أنت فجعتنا في شمسنا يا دهر أنت مجدد الأشجان

العلم يندبه حظه لنعائه ويقول : إني ميت فانعاني

وبكت بلاغته وقالت: ويلتي لم يبق من كافل يرعاني

عظمت رزية أهل تونس كلهم لما نعى الناعي رفيع الشان

فكما أفاض عليهمو من علمه فاضت دموعهمو كما الطوفان

وتفرقوا وبكل قلب جمرة من فقد هذا العالم السحباني

نفذ القضاء بحكمه في عالم بدروسه نظمت عقود جمان

قد كان شمسا مشرقا بعلومه في قطر تونس لا يقاس بثان

العلم طوع يمينه ومراده ومرامه يقتاده بعنان

غذي كثيرا من لبان علومه لبى نداء إلاهه الرحمان

ومضى لحال سبيله وبقينا في حزن عليه كألسن النيران

نم نم هنيئا أيها العلم الذي طعنت لفقدك تونس بسنان

ياقبره قد حزت كل فضيلة وحويت علما راسخا الأركان

يا مزنة صبي عليه واغدقي يا رحمة من وابل الرضوان

لا تجزعوا يا أهل تونس واصبروا فالموت غايتنا بني الإنسان[1]

أبو القاسم الشابي

[1] نثر الشابي القسم الثاني،رسائله ومواقفه من عصره،إعداد و تقديم أبو القاسم محمد كرو،المجلد الخامس، ص387، 388

الفصل الثالث

الفصل الثالث

نقاط العاطفة الحزينة

دراسة سيكولوجية:

أ. الخنساء

ب. الشابي

دراسة سيكولوجية (نفسية) للشاعرين:

في بادئ الأمر يجب معرفة محيط كل من الشاعرين:

فشعر الخنساء هو شعر مخضرم (مزدوج) وملون بصبغة الجاهلية وصدر الإسلام، ولعل هذا ما زاد تميزها عمن عاصرها. وكذلك الملحوظ على شعرها أن جله قيل في الجاهلية وهي فترة أدبية غنية وزاخرة بشعر وشعراء وصلوا القمة، وصنعوا كوكبا خاصا بهم، كما أنهم كانوا الانطلاقة الأولى للأدب عامة والشعر خاصة.

فالشعر الجاهلي هو ما قيل وكتب في الجاهلية قبل الإسلام. مع أننا نعرف أن المدون كان قليلا لأن العرب كانت لهم قوة ذاكرة لا مثيل لها.

ومع هذه النقطة الإيجابية إلا أن هناك جانب سلبي لها، وهو عدم وصول إلينا جميع الموروث الشعري الجاهلي، وكذلك انتشار السرقات. وعليه فلا يخفى علينا أثر البيئة العربية في ذلك الوقت، فكانت صحراوية قاحلة. ولهذه الأخيرة أثر في تطبيع ذلك الإنسان العربي، فانفراده في تلك البقعة السمراء، جعل عزيمته نحاسية ودفاعه فولاذيا، فكأنما البيئة تساعدهم على مواجهة ومجابهة ما سلبتهم إياه من خيرات وفي ذلك يقول مارون عبّود في كتابه الرؤوس

"خلاصة في الإنسانية صهرته شمس الصحراء فلم تبق منه إلا عروق الرجولة الحق وخطوطها"[1].

فقد عاشت تماضر مرحلتين من أهم المراحل في تاريخ الأدب العربي فعاشت الجزء الأول من حياتها في الجاهلية، في مجتمع لا يؤمن إلا بالحياة، مجتمع يفخر بالنسب، تحتويه العصبية القلبية والانتقام ثم فجأة تنقلب الموازين،وتسطع شمس الإسلام في ربوع الجزيرة العربية لتبدأ نقطة التحول بفكر جديد، ومنظار جديد مصوب نحو الحياة.

حيث يبدأ العقل البشري في الحراك والخروج من ذلك القالب الذي هو الجمود والجهل، فقد عاشت الخنساء هذه المرحلتين بكل ما فيها من عقائد وتصورات فكانت في جهل وظلام، وأصبحت في النور وتبصرة بكل شيء من حولها، أي أنها نسجت شعرا جاهليا ثم صبغته بنور الإسلام.

أما الشابي الشاعر المتحرر، عمر في عصر انتشرت فيه الحروب والاستبدادات، فلقد عاش في الثلث الأول من قرننا بين سنتي 1909م-1934م في إطار تاريخي تميز بفترة ما بين الحربين والتأزم الاقتصادي العالمي وقد كان العالم العربي الإسلامي يرزح تحت كابوس

[1] أدب العرب في العصر الجاهلي، د.حسين الحاج حسن من ص21 إلى 24.

الاستعمار يدفع جزية التأزم السياسي والاقتصادي. على أن هذا القرن قد برزت فيه اليقظة والوعي القومي في المجتمعات المستعمرة.[1]

فكان عصرا مظلما بسبب نير الاستعمار، وشعب يتغير بين حاضره الأليم وماضيه القريب، ودعاة الإصلاح وأنصار الجديد في تلك الفترة الانتقالية[2] فقد كان الشابي في مواجهة عدة صور قاسية يصعب احتمالها فالوطن العربي كان يعاني ضيم الاستعمار والحيف الطبقي، وكانت الجماهير في تونس تمثل جزءا لا يتجزأ من الواقع العربي المتردي، فالفقر يمزقها والاستعمار يذلها، فكان على الشاعر الشاب التونسي أن يحلل الوضع في صبغة شعرية رومانسية قريبة من أذواق الناس.

[1] قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون. د.عبد السلام المسدي، ص14.

[2] ديوان أغاني الحيا، ضبط وشرح إميل كبا، ص7.

الخنساء:

من خلال ما قمنا لعرضه عن الخنساء من تعريف وغيره، تظهر لنا أنها نشأت في بيت عز وجاه، وكانت البنت المدللة كونها وحيدة أبيها، وكانت ذات حكمة واسعة، اكتسبتها من حياتها فكانت بمثابة الأم والزوجة. لا ترجع عن قراراتها ولا يُرفض لها طلب فذلك واضح يوم خطبتها من قبل دريد بن الصمّة، حيث قال والدها: "إن ابنتي لها في نفسها ما ليس لغيرها، وهي التي تملك قيادها بنفسها[1]" كما كانت ذات خصال رفيعة، ومثال ذلك لها هجاها دريد بن الصمة بقصيدة مطلعها:

لمن طلل بذات الخمس أمس كفا بين العقيق فبطن خرس

ورغم ذلك لم تجبه الخنساء قائلة:" لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه".[2]

كما أنها كانت شريفة النفس، كارهة للقمار، -الذي أفلس زوجها- معتبرة إياه من أعمال الشياطين.

[1] عباقرة خالدون: الخنسا. تأليف محمد كامل حسن المحامي، ص53.

[2] الخنساء شاعرة الرثا، د.محمد حمود، ص15.

وما هو معروف عن الخنساء أن بركانها الشعري قد انفجر عند مقتل أخويها معاوية وصخر. فكانت الانطلاقة الرسمية لشعرها الباكي، فكانا مثلاها الأعلى في الدنيا، وبصورة أخص "صخر" فكان أقرب إلى قلبها.

حيث قيل لها صفي لنا أخويك قالت:"كان صخرا جنة الزمان الأغبر وذعاف الخميس الأحمر. وكان معاوية القائل الفاعل".

وقيل لها: ايهما أوجع وأفجع؟

قالت :" أما صقر فجمر الكبد وأما معاوية فسقام الجسد". فأنشدت:

أَسَدَانِ مُنْمَرًا المَخَالِبِ نَجْدَةً بَحْرَانِ فِي الزَّمَنِ الغَضُوبِ الأنمرِ

قَمَرانِ فِي النَّادِي رَفِيعا مَحْتَدٍ فِي المَجدِ فَرْعا سُؤْدُدٍ مُتَخَيِّرِ [1]

ومع أن ديوان الخنساء كله رثاء، إلا أنها خصصت الجزء الأكبر منه لأخيها صخر، فكما رأينا سابقا كان هو ملجأها ومساندها. ويستحضرنا هنا قولها:

إنّ أبا حَسَّانَ عِرْشٌ هَوَى مِمّا بَنى اللهُ بِكِنٍ ظَلِيلْ [2]

[1] ديوان الخنساء اعتنى به وشرحه حمد وطاماس، ص66.

[2] نفسه ص96.

وتقول :

أبْكِي عَلى البَطَلِ الَّذي جَلَّلْتُهُ صَخْرًا ثِقالا[1]

تلك كانت حياة الخنساء في الجاهلية. وبعد اعتناقها الإسلام ظلت على تلك الحالة وذلك العهد، ورغم أنها رزأت بمقتل أبنائها، إلا أنها كانت قوية على تحمل تلك الفاجعة، وكانت صبورة عليه وشكرت المولى عز وجل. كما نجدها تحمل عاطفة نحو الإسلام واقتناعها بحقيقة البعث:

مريقي من دموعك أو أفيقي وصبرا إذ أطلقت ولن تطيقي

ولكني وجدت الصبر خيرا من النعلين والرأس الحليق[2]

وهكذا تكون حالة الخنساء التي رواها لنا التاريخ. حالة حزن عميق وظلمة شديدة على نفس الوتيرة لم تنقص بمرور الزمن، بل ظلت على عهد صقر ومعاوية تذكرهما في كل وقت، بل ويمكن أن نقول أنها كانت في تصاعد

[1] نفسه ص97.

[2] ديوان الخنساء، ص103.

عند الشابي:

كان الشابي نحيف الجسم، مديد القامة، قوي البديهة، سريع الانفعال، حاذ الذهن، تكفكف رقة طبعه من غرب عاطفته وحدة ذهنه. يراه أصدقاؤه "بشوشا" كريما، وديعا، متأنقا، طروبا لمجالس الأدب يحب الفكاهة، ويراه من لم يخالطه حَيِيا محتشما. كما كان محبا لبلاده، صادق الوطنية، يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة[1]. ومن المقومات الشخصية قوة الإرادة وصلابة العزيمة، يتجلى ذلك في تكوينه العصامي، إذ كان ميّالا إلى استكمال ثقافته الضاربة في التقليد، ابتداء بركائز المعرفة المتجددة[2].

ورغم أنه كان ذا ثقافة واحدة وعربي اللسان، إلا أنه قاوم وفتح لنفسه منافذ على الآداب الغربية، واطلع على مؤلفاتهم. كما أنه كان شاعرا حساسا وذلك ما أشرنا إليه سالفا، فهي سمة وقاسم مشترك لدى البشر عامة. فكيف إذا اتحدت مع مكونات الفنان الخلقية والإبداعية فتكون مصدر السعادة والشقاء يتراوح الشاعر بينهما في دوران ذبذبي[3]. وما عرف على شخصيته أنه كان كثير الحزن عميق الكآبة ولهذين الأخيرين مساحة كبرى في ديوان الشابي، ولا عجب في ذلك، كونه شاعر رومنسي الصوت. كما أنه شاعر فنان، هي الصفة

[1] ديوان أغاني الحياة ص10.

[2] قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص15.

[3] نفسه، ص16.

التي تميزه عن غيره من الشعراء الذين يعيشون الحياة بحاسة واحدة، أما هو فقد كان يعيشها بجميع الحواس، وهي صفة لا تتأتى إلا لمن كان في مثل حساسيته المرهفة وسعة آفاقه.[1]

وقد تفاعلت عدة عوامل شكلت هذه الشخصية الكئيبة، المرهفة الحس، شديدة الآلام، فالحزن الحاذ كما هو معروف حالة نفسية تتشكل بسبب ضغوطات خارجية، وصراعات داخلية. ومن هذه الأزمات التي أثرت على نفسيته:

تجربته الغرامية التي باءت بالفشل وذلك بموت الحبيبة وهي كالوردة لا تزال تتفتح فطعن المحب طعنة قوية مزقت وجدانه، وأذابت قلبه حزنا على فراق فقيدته التي بكاها بكاء مرا[2].

في قصيدته بعنوان "مأتم الحب" حيث يقول:

في الدَّياجِي

كَمْ أُناجي

مَسْمَعَ الـ،قبرِ، بِغُصَّاتِ نَحيبي، وشُجُوني

ثم أُصغي، عَلَّني أَسمَعُ تَرديدَ أَنيني

---

[1] ديوان الشعر التونسي الحديث، ص72.

[2] قراءات مع الشابي والمتنبي والاحظ وابن خلدون، ص19.

فَأرى مَوْتي فَريدْ

فَأُنادي

يا فُؤَادي

ماتَ مَنْ تَهْوى !وهذا اللَّحد قد ضَمَّ الحبيبْ

فابكِ يا قلبُ بما فيكَ منَ الحُزنِ المُذِيبْ

إبكِ، يا قلبُ وَحِيدْ![1]

ومن هذا نلحظ أن العنصر الوحداني ذا بعدين: بعد إيجابي، وسلبي.

فالإيجابي متمثل في: تفجير شحناته، وخلق الشعر، أما البعد السلبي متمثل في تشكيل تلك الحالة المأساوية. فهذا الازدواج هو أحد أعمدة هذا التمزق النفسي الذي عاشه الشابي[2] ومن بعد كل هذا يصبح الحب هو مصدر الشقاء حيث يقول:

أَيُّها الحُبُّ أَنْتَ سِرُّ بَلَائي .:. وهُمومي ورَوْعتي وعَنائي

ونُحُولي وأَدمعي وعَذابي .:. وسَقامي ولوعتي وشَقَائي[1]

[1] ديوان أغاني الحياة، 21. 22.

[2] قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص19.

ومن فقدان الحبيبة يليه فقدان الوالد الذي نتج عنه نهاية الدعم المادي والمعنوي(1929م) إذ فقد الاب السخي والصديق فوجد نفسه مسؤولا عن إخوته مرغما وبذلك تتعدد صور الرثاء والنعي، فيقول:

يَا مَوْتُ قَدْ مَزَّقْتَ صَدْرِي .:. وقَصَمْتَ بالأَرْزَاءِ ظَهْرِي

وَفَجَعْتَنِي فِي من أُحِبُّ .:. ومنْ إليهِ أَبُثُّ سرِّي

ورَزَأْتَنِي فِي عُمْدَتِي .:. ومَشُورَتِي فِي كُلِّ أَمرِ

وَهَدَمْتَ صَرْحًا لا .:. أَلُوذُ بغيرِهِ، وهتَكْتَ سِتْرِي

وَفَقَدْتُ كَفًّا، فِي .:. الحياةِ تصُدُّ عنّي كُلَّ شرِّ.[2]

ليصاب بعد ذلك الشاعر التونسي بمرض العضال –تضخم القلب– ليحس بعدها بالخوف من الموت والشعور بالوحدة والكآبة والسوداوية حيث يقول:

أنا كَئِيبٌ

أَنا غَرِيبٌ

[1] الديوان، ص50.

[2] نفسه، ص103. 104.

كآبتي خالفتْ نظائِرَها

غَريبةٌ في عوالِمِ الحزَنْ

كآبتي فكرةٌ مُغَرِّدةٌ

مجهولةٌ منْ ممسامعِ الزَّمنْ [1]

وفي الوحدة يقول:

وعانقت في وحدتي لوعتي .:. وقلت لنفسي: ألا فاسكتي [2]

ولا يتوقف الأمر عند هذه الأمور فقط بل يتعدى ذلك إلى حزنه على بلده وشعبه المستغل من قبل المستعمر الفرنسي، فموضوع الصراع هذا قائم على ظروف التي عاشها الشابي مع شعبه، فهو شاعر غيور على وطنه ومحب له، وذلك واضح وجلي في قصيدته "تونس الجميلة".

لَسْتُ أَبْكي لعَسْفِ ليلٍ طويلٍ .:. أوْ لرَبْعٍ غدا العَفَاءُ مِراحَهْ

إنَّما عَبرَتي لخَطبٍ ثقيلٍ .:. قَد عَرانَا، ولَم نَجِدْ مَنْ أَزاحَهْ

كُلَّمَا قامَ في البِلَادِ خَطيبٌ .:. مُوقِظٌ شَعبَهُ يُريدُ صَلَاحَهْ 11

[1] ديوان أغاني الحياة، ص23.

[2] نفسه، ص130.

فكابوس الاستعمار يستنزف دماء شعبه، ويبتز خيراته، فحاول الشابي الشاب الفذ يبعث الوعي في النفوس أبناء جلدته المتردد بحثا عن يقظة الحس[1]، ومحرك للهمم والسواكن، فذلك واضح في قصيدة يا ابن أمي، يقول:

خُلقْتُ طَليقًا كَطَيْفِ النَّسيمِ .:. وحُرًّا كَنُورِ الضُّحى في سماهْ

تُغَرِّدُ كَالطَّيْرِ، أَيْنَ انْدفَعْتَ .:. وتَشْدُو وبما شَاءَ وحْيُ الإلهْ

أَلَا انْهَضْ وسِرْ في سَبِيلِ الحَياةِ .:. فمنْ ناَمَ لمْ تَنْتَظِرْهُ الحَياهْ

ولا تخشَ ممَّا وراءَ التِّلاعِ .:. فما ثَمَّ إلَّا الضُّحى في صِباهْ[2]

إلى جانب الاستعمار الفرنسي هناك استعمار آخر، وهو استعمار شعبه لنفسه والجمود دون حراك. واستسلامه للاستعمار الفرنسي، وايمانه بالأفكار القديمة وعدم المساهمة في التطور، والحراك قدما.

فشعبه كان مكبلا بقيود الماضي، فهذه النزعة قد شدته إلى العصور القديمة، وحبست أنفاسه. فحتم عليه الوضع خلق روح التحرر، إلا أنه لمح فيهم حالة التقوقع واللامبالاة ، حيث

[1] قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ ولبن خلدون، ص60. 61.

[2] ديوان أغاني ص96. 97.

تجمدت القوى الخالقة التي جعلت حياة الناس صورة من حياة المتاحف والقبور[1]. كما أنه كان ينعي على القلب الإنساني قبوله الذل والركون للاستعمار، فهو يتألم لهذا الشعب الذي تهدر دماؤه ولا يتأثر.

يقول:

كُلُّ قلبٍ حملَ الخَسْفَ، وما .:. مَلَّ من ذُلِّ الحياةِ الأَرْذَلِ

كُلُّ شَعْبٍ قد طَغَتْ فيه الدِّما . :. دونَ أَنْ يَثْأَرَ لِلْحَقِّ الجَلِيّ

خَلِّ لِلْمَوْتِ يَطُوِيهِ.. فما .:. حَظُّهُ غَيرُ الفَناءِ الأَنكَلِ[2]

فهو يريد لمجتمعه كل الإستقلال العلمي والتفوق الحضاري فهذه الصفات ليست من سمات أبناء شعب مؤمن بغد حيث يقول:

إذا الشَّعبُ يومًا أرادَ الحَياة .:. فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ[3]

[1] الشابي وجبران، ص65.

[2] ديوان أغاني الحياة، ص13.

[3] نفسه، ص05.

وعدم مبالاة شغبه خلقت شعور الغربة في نفسه . بل إنه شعور بالامتياز والتفوق بمعنى آخر غربة المعاني التي يؤمن بها وحين عجز عن العثور عن مصغ أخذ يقول:

أنت من ريشة الإله، فلا تلقي بفن السما لجهل العبيد[1]

أنت لم تخلقي ليقرّ بك، ولكن لتعبدي من بعيد

ومن هنا ترى أن نفسية الشاعر التونسي الشاب الشاعر العملاق، قد تضافرت فيها عدة منازعات وهذا تمثيل لذلك"

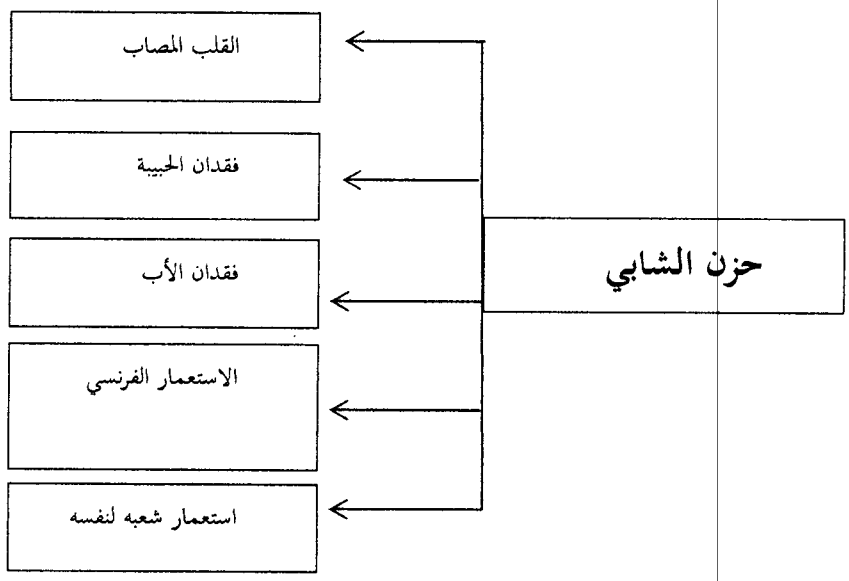

[1] الشابي وجبران، ص93.

فديوان أغاني الحياة، يكشف عن شخصية الشاعر المغمورة بالحزن والمرتبط بظروف اجتماعية وتاريخية، كلها ساهمت في وضع الخليط المأساوي، وصقله في نفسية الشابي.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

دراسة أسلوبية

المبحث الأول:

التكرار

أ. الخنساء

ب. الشابي

المبحث الثاني:

الوزن

أ. الخنساء

ب. الشابي

المبحث الثالث:

القافية والروي

أ. الخنساء

ب. الشابي

التكرار:

يعدّ التّكرار من الظّواهر الأسلوبيّة التّي تستخدم لفهم النّص الأدبي، وقد درسها البلاغيّون العرب، فهو كلمة عربيّة بمعنى الكرّ أي الرّجوع أو الإعادة. وقال ابن النّقيب:" أن حقيقة التّكرار أن يأتي المتكلّم بلفظ ثمّ يعيده بعينه سواء أكان اللّفظ متّفق المعنى أو مختلفا، أو يأتي بمعنى ثمّ يعيده، وهذا من شرطه اتّفاق المعنى الأوّل والثّاني فإن كان متّحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النّفس، وكذلك إذ كان المعنى متّحدا. وإن كان اللّفظان متّفقين، والمعنى مختلف فالفائدة في الإتيان به، الدّلالة على المعنيين المختلفين"[1]

فالتّكرار إذا هو إعادة الكلمة أكثر من مرّة في سياق واحد إمّا للتّوكيد أو التّنبيه أو التّعظيم.

وفي هذا تقول عنه نازك الملائك:" التّكرار في حقيقته، إلحاح على جهة هامّة في العبارة يُعنى بها الشّاعر أكثر من عنايته بسواها....فالتّكرار يسلّط الضّوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن إهتمام المتكلّم بها وهو، بهذا المعنى، ذو دلالة نفسيّة قيّمة تفيد النّاقد الأدبي الّذي يدرس الأثر ويحلّل نفسيّة كاتبه"[2]

ومن هنا نفهم أنّ التّكرار ظاهرة اسلوبيّة مساعدة على الغوص في الأعماق لمعرفة الخبايا.

1 علم البديع بين الإتباع والإبداع. دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، حسن عبد الجليل يوسف، دار الوفاء، ط1 2007م ص71.

2 قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائك، منشورات مكتبة النهضة ،ط1976،3 ،ص242.

أ/ الخنساء:

والتّكرار الّذي نجده في الشعر الخنساء من التّكرار المفيد، وهو تكرار ينتظم الحرف واللّفظ والصّيغة والتّركيب.

وسنكتفي بعرض بعض النّماذج الّتي تعبّر عن هذه الظّاهرة، ومن ذلك تقول الخنساء:

يَا عَينِ مالَكِ لا تَبكِينَ تَسكابا؟ إذا رابَهَ دَهرٌ، وكانَ الدّهرُ رَيّابا

فابْكِي أخاكِ لأيْتامٍ وأرْمَلَةٍ، وابكِي أخاكِ إذا جاوَرْتِ أجنابا

وأبكِي أخاكِ لخيلٍ كالقَطا حُصَبًا، فضقْدَنَ لمّا ثَوَى سَيْبًا وأنهابا

يَعْدو به سابِحٌ نَهْدٌ مَرا كِلُهُ، مُجَلْبَبٌ بسَوادِ اللّيلِ جِلبابا

حَتّى يُصَبِّحَ أقوامًا، يُحارِبُهُمْ، أوْ يُسْلَبوا، دونَ صَفْحِ القَوْمِ، أسلابا[1]

ففي هذه الأبيات أنماط متنوّعة من التّكرار، فمن تكرار الحروف نجد حرف الباء الذي يمثّل الرّوي، كما نجد تكرار حرف: الكاف والخاء والجيم. وهناك تماثل صوتي بين يسلبوا وأسلابا سيبا –سابح بسواد-. أما عن التّكرار اللّفظي: راب، ريابا- ابكي أخاك، أبكي أخاك. مجلبب، جلبابا، يسلبوا أسلابا.

وهذا النّمط من التّكرار يمثّل ظاهرة سائدة في كلّ قصائد الخنساء وهي:

[1] ديوان الخنساء،ص 13

تندرج في إطار فنون البديع المتنوّعة، وهي نوع من التّطريز حيث تتماثل بدايات الأبيات وهو تماثل يحدث توازنا بين البداية والنّهاية حتّى القافية واحدة[1] وسوف نشير إلى نوع آخر من التّكرار في قولها:

يا عينُ فابكي فتًى مَحْضًا ضرَائِبُهُ صَعْبًا مَرَاقِبُهُ، سَهْلًا إذا رِيدا1

فهو يدخل في باب تكرار الأساليب والتراكيب اللغوية، حيث كررت النعت السببي الذي يتكون من الصفة المشبهة منصوبة مع الفاعل مضافا إلى ضمير الغائب[2] (محضا ضرائبه، صعبا مراقبه).

وفي موضع آخر تقول الخنساء:

عَينيّ جُودا بدَمْعٍ منكما جُودا جُودا ولا تَعِدا في اليَوْمِ مَوْعودَا[3]

وتقول:

يا عينُ فِيضي بدَمْعٍ منكِ مِغْزَارِ وابكي لِصَخْرٍ بدمْعٍ منكِ مِدرارِ[4]

---

[1] علم البديع بين الإتباع والابتداع. دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء. حسن عبد الجليل يوسف ص73.

[2] نفسه ص73.

[3] ديوان الخنساء ص37.

[4] نفسه ص53.

فهذه جميعا، عمليات تنسيق بارعة، تتفق مع حالات الاسى والشعور بالفقد اتفاقا كاملا حتى لتبدوا وكانها أكثر "الزخارف" الشعرية غنى في التعبير عن الحالة الآسية دون إخلال ما بالبناء العضوي لهيكل البيت القصيدة كلّها.[1]

ومن شواهد هذا التّكرار النّفيّ قولها:

لا يأخذُ الخسْفَ في قوْمٍ فيغضِبَهمْ ولا تراهُ إذا ما قامَ مَحْدودا

ولا يَقُومُ إلى ابنِ العَمّ يَشْتِمُه ولا يَدِبّ إلى الجاراتِ تخويدا.[2]

ومن نماذج تكرار الإستفهام قولها:

فمن لِقِرَى الاضيافِ بعدَكَ إنْ هُمُ قُبالَكَ حَلّوا ثمّ نادَوا فاسمَعُوا

ومَنْ لُمْهمٍ حَلّ بالجارِ فادِحٍ وأمْرٍ وَهَى من صاحِبٍ ليسَ يُرْقَعُ[3]

فهو تكرار الإستفهام بأداة من مقرونة بلام الجرّ، وهذا النّمط كان سائدا في الشّعر الجاهلي، وبخاصّة في قصائد الرّثاء. فهو يعبّر عن اهميّة المفقود حيث يتضمّن استبعادا لأن يكون هناك من يقوم مقامه أ ويفعل أفعاله، ويمثّل تكرار الأسلوب إلى جانب وظيفته الإيقاعيّة في الشّكل تفصيلا لدور المرثي، وتفسيرا وتعليلا لاهتمام الشّاعرة به وحزنها عليه.[4]

---

[1] شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ،د مصطفى عبد الشافي الشوري ،مكتبة لبنان ناشرون لونجمان،ط1، 1995، ص154، 155

2 ديوان الخنساء ص38.

3 نفسه ص77.

4 علم البديع بين الاتباع والإبتداع. دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء ص74 .75.

وبهذا يكون التّكرار جزء أو إحدى الوسائل التي استعملتها الخنساء للتّعبير عن تجربتها المأساويّة، وهنا يستحضرنا قول نازك الملائك : "...أو لنقل إنه جزء من الهندسة العاطفيّة للعبارة يحاول الشّاعر فيه أن ينظم كلماته بحيث يقيم اساسا عاطفيّا من نوع ما"[1]

1 قضايا الشعر المعاصر ص276.

ب/ الشّابي:

استعمل الشّابي التّكرار في أشكال مختلفة وكان في غالبه يتّفق مع طبيعته النفسيّة، فاستخدمه كوسيلة للإعادة والإلحاح والتّأكيد. على ما في ذهنه لإصلاح الواقع، ومن هذه الطّرائز قوله في اخر أبيات القصيدة المعنونة بـ "الحبّ":

الحُبُّ جَدْوَلُ خَمْرٍ، من تذَوَّقَهُ خَاضَ الجَحِيمَ، ولم يُشْفِقْ من الحَرَقِ

الحُبُّ غايةُ آمالِ الحياة فما خَوْفِي إذا ضَمَّني قبري؟ وما فَرَقي؟[1]

فهو هنا يُعلي من شأن الحبّ لأنّه ذات فاضلة، تطهّر النّفوس، ويقود الإنسان إلى الخوض في كلّ ما هو حلو ومرّ معا، فهذا شعار ينادي به كل الرّومانسيّون. فالشّاعر كما قلنا هو شاعر حزن وألم، وهذا الأخير يختلف عن ألم الآخرين.

ويقول في قصيدة "الكآبة المجهولة".

كآبتي خَالَفَتْ نَظَائِرَهَا

غريبةٌ في عَوالِمِ الحزَنْ

كآبتي فكْرةٌ مغَرِّدَةٌ

مجهولةٌ من مسامع الزّمَنْ[2]

---

1 ديوان أغاني الحياة ص50.

2 نفسه ص23.

فنلاحظ تكراركلمة كآبتي ولو تابعنا القصيدة إلى الآخر، نلاحظ كذالك تكرار بعض مشتقّاتها مثل: (يكتئب، إكتئابي...)فهو يلحّ على أنّ كآبته من نوع خاصّ، معبّرا عن واقعه الحزين، لكي يسمعه الناس ويتعاطفوا معه.

ويقول في موضع آخر:

ويرى الآفاقَ فَيُبْصِرُهَا زُمرًا في النّورِ، تُراصِدُهُ

ويرى الأطيارَ، فيَحْسَبُهَا أحلامَ الحُبِّ تُغرِّدُهُ

ويرى الأزْهَارَ، فيحسَبُها بَسماتِ الحبِّ تُوادِدُهُ[1]

أمّا في هذا المقطع فنلاحظ تكرار الفعل (يرى) في بداية كلّ بيت، رابطا هذا الفعل بأحد رموز الطّبيعة، وكأنّنا أمام متصوّف منعزل عن النّاس ليتأمّل ويعرف.

كما كثر في شعر الشّابي، تكرار النّداء، وقد ورد في عدّة قصائد منها قوله:

يا شعرُ انتَ فَمُ الشّعورِ وصرخةُ الرُّوحِ الكَئيبْ

يا شعرُ أَنتَ صدَى نَحيبِ القلْبِ والصَّبِّ الغَريبْ

يا شعرُ أنتَ مَدامعٌ عَلِقتْ بأهدابِ الحياة37[2]

فجعل انطلاقته بأسلوب النداء، وذلك يبرزه به أحزانه ويوصل به تجربته.

ويبقى من أنواع التّكرار، تكرار الحرف وأمثلته كثيرة منها هذان البيتان من قصيدة "صلوات في هيكل الحبّ" حيث يقول:

---

1 ديوان أغاني الحياة ص115.

2 نفسه ص37

عذبةٌ أنت كالطُّفولَةِ كالأحلامِ، كاللَّحنِ، كالصَّباحِ الجديدِ
كالسَّماءِ الضَّحوكِ كاللَّيلةِ القمراءِ كالوَرْدِ، كابتسامِ الوليدِ.[1]

وفي هذا تقول نازك الملاك: " فالشّاعر يكرّر الكاف ويؤثرها عن الواو لتقوية التّشبيه والكلام...."[2] وهو بهذا التّكرار يشكّل وحدة إيقاعيّة، مجسّدة لعاطفة الشّابي إتّجاه محبوبته.

1 ديوان أغاني الحياة ص131.

2 قضايا الشعر المعاصر، ص239.

الوزن أو البحر:

هي عبارة عن وحدات صوتيّة معيّنة، يرمز إليها في علم العروض بـــ (المتحرّك والسّاكن). وتقوم على اساسه التّفعيلية، أي عن طريق المتحرّك والسّاكن تولد التّفعيلية وهي بدورها تكون في صحبة تفعيلات أخرى وهذه التّفعيلات ماهي إلاّ وحدات، ينتظمها البيت الشّعري، وقد تأتي واحدة متكرّرة أحيانا أو مركّبة من اثنين.

- فالمتكرّرة متمثّلة في البحور التّالية: الوافر، الكامل، الرجز، الهزج، الرمل، المتقارب والمتدارك.

أمّا المرّكبة فهي كالآتي: الطويل، البسيط، المديد، الخفيف، المنسرح، السريع، المقتضب، المجتث والمضارع.

فالوزن يلعب دورا هاما، في تفجير الكلمة الشّعوريّة، وإثارة جوانب القوّة والدّال فيها، من خلال استعمال وحدات صوتيّة، أو أجزاء معيّنة من التّفعيلية.

والملاحظ أنّ هناك تلاحم بين الوزن واللّفظة والجوّ النّفسي.

الخنساء:

إنّ أوّل بحر يحتلّ الصّدارة في ديوان الخنساء، هو بحر البسيط ، هذا الأخير بحر مركّب من تفعيلتين: مستفعلن فاعلن، تتكرر مرتين ومن نماذ هذا الوزن:

يا عَينِ جودي بدَمْعٍ غَيرِ مَنْزُورِ مثلِ البُمانِ على الخَدّينِ مَحدورِ

وابكي أخاً كانَ مَحمودا شمائِلُهُ مثلَ الهِلَالِ مُنيراً غيرَ مَغمورِ

وفارِسَ الخَيْلِ وافَتْهُ مَنِيّتُهُ، ففي فؤادي صَدْعٌ غيرَ مَجبورِ

نِعْمَ الفتى كُنتَ إذ حَنّتْ مُرَفْرِفَةً هُوجُ الرّياحِ حَنينَ الوُلّهِ الحُورِ

والخَيْلُ تَعْثُرُ بالأبْطَالِ عابِسَةً مثلَ السّرَاحين من كابٍ ومَعفورِ[1]

فالملاحظ على الشّاعرة أنّها شديدة الحزن فقد ابتدأت المقطوعة بنداء لعينها وهي مبالغة تدلّ على كثرة الحزن وشدّته. فهو بحر مناسب لرصد هذه التّجربة الشعوريّة.

كما وظّفت عدّة ألفاظ تدلّ على الشّيم الحميدة مثل: (محمودا شمائله، مثل الهلال، فارس، نعم الفتى)

أمّا البحر الّذي احتلّ المرتبة الثّانية هو بحر الطويل، هو الآخر مركّب من تفعيلتين: فعولن مفاعلن تتكرر مرتين. كما أنّه من أكثر البحور استعمالا في الشّعر القديم.

ومن نماذج هذا الوزن قصيدة بعنوان "ومن يضمن المعروف":

1 ديوان الخنساء ص59- 60.

أعَينيّ هلّا تبكيانِ على صَخْرِ بدمعٍ غَثيثٍ لا بَكيءٍ ولا نزرِ

وتَسْتَفرِغانِ الدّمْعَ أو تَذْرِيانِهِ على ذي النّدى والجود والسيّد الغمرِ

فما لَكُما عن ذي يَمينينِ فابْكيا عليهِ معَ الباكي المُسَلّبِ مِنْ صَبرِ

كأنْ لم يقلْ أهلاً لطالبِ حاجَةٍ وكانَ بَليغَ الوَجهِ مُنشرِحَ الصّدرِ

ولم يَغدُ في خَيْلٍ مجَنّبَةِ القنا ليروي أطرافَ الرديني السمر

فشأنُ المَنايا إذْ أصابَكَ رَيْبُها لتَغدو على الفتيانِ بعدَكَ أو تَسري48.49

إلى آخر القصيدة، فهي تصوّر ما تقاسية الشّاعرة من ألم، وهو يظهر في مطلعها عندما خاطبت عيناها: وهي غارقة في أحزانها معدّدة خصال صخر.

هذا .إضافة إلى بحور أخرى مثل الوافر حيث تقول:

الا يا عينِ فانْهَمِري، وقَلّتْ لِمَرْزِئَةٍ أصيبَ بها تولت[1]

والكامل تقول:

يا ابنَ الشّريدِ خيرَ قيسٍ كلّها خَلّفتني في حَسْرَةٍ وَتَبَلّدِ[2]

وورد الكامل مجزوءا في عدة قصائد منها: يابن القروم:

يا عَينِ جودي بالدّموعِ فقَدْ جَفَتْ عنكِ المَراوِدْ[3]

1 ديوان الخنساء ص24.

2 نفسه ص39.

3 نفسه ص34.

إضافة إلى بحور قد وردت بقلة مثل بحر الخفيف:

ما لِذا المَوتِ لا يَزَالُ مَخيفَا كُلَّ يَوْمٍ يَنالُ مِنّا شَريفاً[1]

والمتقارب حيث تقول:

أعينيّ جودا ولا تجمُدا الا تبكيانِ لصخرِ النّدى[2]

وهناك بحور أخرى وردت لمرّة واحدة في الدّيوان بكاملة مثل: رمل في مقطوعة بعنوان "يطعن الطّعنة" والمجتث في قصيدة بعنوان "إنّ صخرا كان حصنا".

1 نفسه ص84.

2 نفسه ص31.

الشّابي:

من أكثر الأوزان شيوعا في ديوان الشّابي، بحر الخفيف حيث ورد 25 مرة، ثمّ يليه بحر الكامل.

فنلاحظ أنّ الشّاعر كان ميّالا إلى البحر الخفيف بعدد أكبر فهو بحر مناسب للتّجربة الشعوريّة، كما أنّه بحر ممزوج متكوّن من إزدواج بحر الرّمل والرّجز معا، فأخذ الرّزانة من الرّمل مرّتين، وأخذ من الرّجز خفّته فتلك الخفّة تشكّل نوعا من الخفّة والإنكسار.

ومن أبرز نماذج هذا البحر: قصيدة بعنوان "تحت الغصون" حيث يقول:

هاهنا في خمائلِ الغابِ تحت ... الزّانِ، والسّنديانِ، والزّيتونِ

أنتِ أشهى من الحياة وأبهى ... من جمال الطّبيعة الميمونِ

ما أرقّ الشّبابَ في جسمكِ الغضّ وفي جيدِكِ البديعِ الثمينِ

وأدقّ الجمالَ في طَرْفكِ السّاهي، وفي ثغرِكِ الجميلِ الحزينِ

وألذّ الحياةَ حينَ تُغنّينَ ... فأُصغي، لصَوتِكِ المحزونِ

وأرى رُوحَكِ الجميلةَ عِطْرًا ... ضائعًا في حَلاوةِ التّلْحينِ

قدْ تغنّيْتِ منذُ حينٍ بصَوتٍ ... ناعمٍ، حالمٍ، شَجيٍّ حَنونِ[1]

إلى أن يقول:

1 ديوان أغاني الحياة ص188- 189.

فتنهّدتْ، ثمّ قلتُ وقلْبي مَنْ يُغنّيهِ ؟ مَنْ يُبيدُ شُجوني

قالتِ الحُبُّ ثمّ غنّتْ لقلْبي قُبَلًا عَبْقريّةَ التّلْحينِ[1]

فهي إذا قصيدة حواريّة، حيث يتذكّر فيها الشّاعر لحظة عزيزة على قلبه، إذ كان قد إلتقى بفتاة، فتوضّح هذه القصيدة حالته من توتّر وهدوء مع محبوبته، فنلاحظ تماشي التّجربة النّفسيّة هذه مع بحر الخفيف، ومثال آخر في هذا البحر دائما، قصيدة بعنوان، "أيّتها الحالمة بين العواصف" يقول فيها:

أَنْتِ كالزّهرةِ الجميلةِ في الغابِ، ولكنْ ما بينَ شوكٍ وذُودِ

والرّياحينُ تَحسَبُ الحسَكَ الشرّيرَ والذُّودَ من صُنوفِ الورودِ

فافْهَمي النّاسَ، إنّما النّاسُ خَلْقٌ مُفْسِدٌ في الوجودِ، غيرُ رَشيدِ

كأَغاني الطُّيور، كالشّفقِ السّاحرِ، كالكوكبِ، البعيدِ السّعيدِ

كثُلُوجِ الجبالِ، يغْمُرُها النُّورُ، وتسْمو على غبارِ الصّعيدِ.[2]

فهذه القصيدة تعتمد على قوّة الانفعال المنبعث من أعماق الشّاعر.

1 ديوان أغاني الحياة ص190.

2 نفسه ص170.

كما نلاحظ تلائم بين التّشكيل النّفسيّ وطبيعة التّفعيلية الموجودة في هذا البحر المتموّج (انحدار وصعود)

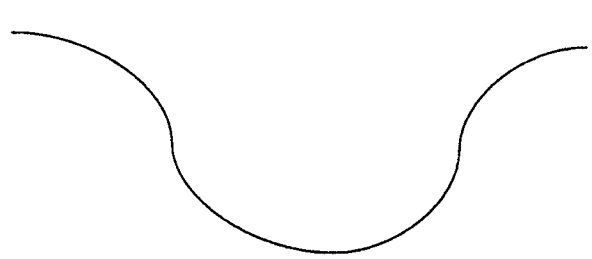

أمّا عن البحر الّذي احتلّ المركز الثّاني فهو بحر الكامل، هو بحر يلائم التّجربة النّفسيّة، الّتي تتصاعد وفجأة تغيب. ومن القصائد الّتي توضع هذا قصيدة بعنوان "الجنّة الضّائعة".

كَمْ من نُهودٍ عذبةٍ في جُذوةِ الوادي النَّضيرْ
فِضيَّةِ الأَسْحارِ مُذْهَبةِ الأَصائل، والبُكُورْ
كانتْ أرقَّ منَ الزّهورِ، ومنْ أغاريدِ الطّيورْ
أيّامَ كانتْ للحياةِ حَلاوةُ الرَّوضِ المَطيرْ
وطهارةُ المَوْجِ الجميلِ وسِحْرُ شَاطئهِ المنيرْ[1]

1 ديوان أغاني الحياة ص160- 161.

فالشّاعر هنا في هدوء ،فهو يسرح بخياله في ماضيه إلى ذكرياته إلى جنّته الضّائعة، فظلّ على نمط واحد حتّى نهاية القصيدة، ومن هنا جاءت تفعيلات الكامل البسيطة، ملائمة مع هذا المستوى النّفسيّ، ضف إلى ذلك أنّ هناك تداخل بين الصّدور والعجز على خلاف ماجر عليه الشّعر القديم، ومثال ذلك قصيدة "قلبي التّائه".

وتطلّ علينا من ديوان الشّابي نماذج فنّيّة لا تخضع لوحدة البحر، ولا لوحدة القافية كقصيدة "أغنية الأحزان":[1]

غَنِّني أُنشُودَةَ الفَجْرِ الضَّحوكْ أَيُّها الصَّدَّاحْ

فَلَقَدْ جَرَّ عَنِي صَوْتُكَ الظَّلاَمْ

أَلَمًا عَلَّمَنِي لُحْنَ الحَياةْ

إنَّ قَلْبِي مَلَّ أَصداءَ النُّواحْ غَنِّني يا صاحْ[2]

هذه قصيدة متكوّنة من إحدى عشر مقطع. ويظهر الشّابّي وكأنّه يتململ داخل القصيدة مثلما يفعل ذلك في الحياة، فهو كان يشعر بتوقّف الحركة في ظلّ الإيقاع التّقليدي.

كما وردت عدّة بحور أخرى مثل المتقارب حيث يقول في قصيدة "بقايا الخريف" :

كَرِهْتُ القُصورَ وقُطّانَها وما حولَها من صِراعٍ عنيفْ[3]

وبحر الطويل ومثال ذلك مقطوعة بعنوان "المجد":

1 عالقة عند مطلع القرن، الدكتور عبد العزيز المقالح. دار الآداب بيروت. الطبعة الثانية 1988 ص217.

2 ديوان اغاني الحياة ص52.

3 نفسه ص69

يَوَدُّ الفَتى لوْ خَاضَ عاصفةَ الرَّدى، وصدَّ الخَمِيسَ المَبْرَ، والأَسَدَ الوَرْدَا[1]

والبسيط كقصيدة: "أغنية الشّاعر" حيث يقول:

يا ربَّةَ الشّعرِ والأَحْلامِ، غَنِّني فقدْ سئِمْتُ وُجوهَ الكَوْنِ، منْ حِينِ[2]

وكذلك بحر الرمل في قصيدته "أغنية الأحزان" المذكورة سابقا، كما ورد هذا البحر مجزوءا أو مثال ذلك قصيدة بعنوان "إلى قلبي التائه" والتّي مطلعها:

ما لِآفاقكَ يا قَلْبيَ سُودًا حالكاتْ[3]

وبحر المجتث وكمثال عليه قصيدة بعنوان: "في فجاح الآلام"

يا لَابتِسَامةِ قلبٍ، مَطْلُولةٍ بدُموعِهْ[4]

كما ورد بحر السّريع لمرّتين في ديوانه ومثال ذلك قصيدة بعنوان: "أكثرت يا قلبي فماذا تروم؟" والّتي مطلعها كالتّالي:

يا قلْبيَ الدَّامي! إلامَ الوُجومْ؟ يكْفيكَ إنَّ الحزْنَ فَظٌّ، غشُومْ[5]

وقد وردت بحور لمرّة واحدة فقط في الدّيوان بأكمله وهي: المنسرح مخلع بسيط والسريع

1 نفسه ص56.
2 نفسه ص70.
3 ديوان الأغاني الحياة ص99.
4 نفسه ص72.
5 نفسه ص102.

القافية والروي:

إنّ القافيّة ليست بحكم وجودها في آخر البيت، ذات منفصلة عن المعنى، لكنّها مع ذلك لم تهمل قيمتها الصّوتيّة في القصيدة، والبناء الشّعري، حتّى عند النّقّاد العرب القدامى، رغم اختلافهم في تحديدها ،اتّفقوا على بعض خصائصها وأهميّتها في العمل الشّعري، فقد نعتوا القافية، وأشاروا إلى بعض معاملها الإيجابيّة في القصيدة، واعتبروها مولدا صوتيّا معنويّا، تسير وفق نظام معيّن وعلى رويّ واحد على الأقلّ، وعلى الشّاعر اختيار كلمات وحروف مناسبة، ومن تمّ فالقافية وظيفة مزدوجة صوتيّة، ومعنويّة، وهي بذلك خيط رفيع تساعد على عمليّة الإبداع الشّعري.

أ/ الخنساء:

ما يلاحظ في ديوان الخنساء، أنّها اتّبعت قافية واحدة دون تغيير أو تنويع في القصيدة الواحدة، وقد كانت ميّالة إلى الكسرة في آخر البيت أكثر من الحركات الأخرى، فهذه الكسرة دليل على الحزن العميق والإنكسار النّفسيّ، فتقول:

عينيّ جودا بدَمْعٍ غير منزُورِ وأعولا ! إنّ صخرًا خيْرُ مَقْبورِ[1]

نلاحظ حزن عميق على صخر. كما أنّ هذا المطلع يجسّد ضربة إيقاعيّة متمثّلة في توالي الرّاء المكسورة في كلّ من الصّدر والعجز والّتي تساعد على تبيان الحالة النّفسيّة للشّاعرة.

وتقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخر:

يا عينِ بَكّي على صخرٍ لأشجانِ وهاجِس في ضميرِ القَلْبِ خزّانِ

إنّي ذكَرْتُ نَدَى صَخْرٍ فهَيّجَنِي ذكرُ الحَبيبِ على سُقْمٍ وأحْزانِ

فابكي اخاكِ لايتامٍ اضرَّ بهِمْ رَيْبُ الزّمان، وكلُّ الضّرّ يغْشانِي

وابكي المُعَمَّمَ زَينَ القائدين إذا كَانَ الرّمَاحُ لدَيهِمْ خَلْجَ أشْطانِ

وابْنَ الشّريدِ فَلَمْ تُبْلَغْ أرومَتُهُ عندَ الفَخارِ تقرّهُ غيرُ هِجْانِ

لو كان للدّهْرِ مالٌ عِندَ مِثْلافهُ الكريمةِ، لا نِكْسٌ ولا وانِ[2]

1 ديوان الخنساء ص58.

2 نفسه ص111.

ففي هذه القصيدة تجسّد النّون المجرورة أنينا، كما كشفت عن تلك النّفس الحزينة المتألمة، فالنّموذج السّابق يصوّر نفسيّة الشّاعرة المتأجّجة، كما نلاحظ أن كلّ كلمات القافيّة جاءت برويّ واحد وهو النّون الّذي يظلّ يرنّ في سمع المتلقّي، كما أنّ تكرارها يزيد في حدّة النّغم.

والّذي نسمه يدوّي كالبركان في جرس عال ونفس متألمة، منفعلة تقول راثية صخرا:

لا تَخَلْ انّني لقيتُ رواحَا بَعْدَ صَخْرٍ حتى أُتَيْنَ نُواحَا

من ضميري بَلَوْعَةِ الحزن حتى نَكَأَ الحُزْنُ في فؤادي قِقاحا

لا تخلني أنّي نَسيتُ ولا بُلّ فُؤادي ولو شَرِبْتُ القَراحا

ذِكْرَ صَخْرٍ إذا ذَكَرْتُ نداهُ عيلَ صَبْري بِرُزْئِهِ ثم باحا[1]

فإلى جانب ذلك الحزن نلاحظ تلك الموسيقى العالية التي تتفرّد بحروف الحاء في نهاية الأبيات ويزيدها المدّ روعة وجمالا.

1 ديوان الخنساء ص28.

ب/الشّابي:

ما يلفت النّظر في ديوان الشّابي هو أنّه مال بكثرة إلى الكسر والسكون في أواخر الأبيات، فتوالي الكسر في القافية أو أواخر البيوت يعني إنكسارا نفسيا وحالة حزن عميق ولا سيما إذا اتصلت به الياء كما هو في القصيدة "أيها الحب" حيث يقول:

أيّها الحُبّ أنتَ سِرّ بَلَائِي وهُمومِي، ورَوْعتي، وعَنَائي

ونحولي، وأدمعي، وعَذابي وسقامي، ولوعتي، وشَقَائي[1]

فتوالى الكسرة مع الياء كشفت عن حالة الشاعر والمتألمة

كما نلحظ في قصيدة أخرى تنوع الروي وهي بعنوان "شعري" حيث يقول:

شعري نفاثه صدري إن جاش فيه شعوري

لولاه ما أنجب عني عبء الحياة الخطير

...يقول:

ما الشعر إلا فضاء يرفّ فيه مثالي

في ما يسر بلادي وما يسر المعالي

ويقول:

يا شعر أنت ملاكي وطارفي وتلادي

1 ديوان أغاني الحياة ص50.

أنا إليك مراد وأنت نعم مرادي[1]

فالروي هاهنا متنوع بين راء، لام، ودال، ومع قليل من الإنتباه نلاحظ أنها حروف متقاربة المخرج.

أما فيما يخص التسكين، فهي أكثر شيوعا في موشحاته، مثلا موشحته "الصباح الجديد":

اسكني يا جراحْ واسكُتي يا شُجونْ

مات عهدُ النُّواحْ وزمَانُ الجُنونْ

وأطلّ الصَّباحْ من وراءَ القرونْ

في فجاجِ الرَّدَى قد دفَنْتُ الألَمْ

ونشرت الدُّموع لرياح العَدَمْ

واتّخذت المياه معزفا للنّغم

أتغنّى عليه في رحاب الزّمن[2]

فالسكون جاء مناسبا لرصد حالة الشاعر المتأمل بالغد المشرق.

---

1 ديوان أغاني الحياة ص35- 36.

2 نفسه ص175.

خاتمة

ان هذه الدراسة كما رأينا هي دراسة موازنة في مجال الشعر، و قد كانت بين الخنساء الشاعرة المخضرمة و الشابي، الشاعر التونسي الحديث، وقد ركزت على الجانب النفسي لهما و هو: الحزن و الألم فقي شعريهما، متوصلا الى مجموعة من النتائج أو النقاط من خلال دراستي هذه:

فتبدؤها الخنساء بحكم أنها كانت سابقة للشابي، فنلمح وجود صورة للحداثة في شعرها متمثلة في هجرها للمطالع الطالية الى مطالع تتصل بموضوع الرثاء مباشرة.

- اقتصارها على غرض واحد ووحيد و هو الرثاء، و استئثار صخر بجل مراثيها ناسجة اياه بجملة من الأحزان و الآلام و التشاؤم.
- ان الصورة العامة التي قدمتها الخنساء هي صورة الرجل الكامل الذي يستحق الحياة.
- تشاؤم الخنساء في مسار دائم أي أن الحياة اسودت في عينيها الى يوم وفاتها.
- أما من الناحية الموسيقية فقد ركزت على بحور أكثر من غيرها مثل البسيط و ذلك لتماشي تفعيلاته و تجربتها الحزينة.
- محافظتها على القافية، خاتمة القصيدة الواحدة بروي واحد و في ذلك عدم الخروج عن المألوف.

أما في ما يخص الشابي الشاعر الوطني، الرومنسي، فنلمس عنده هو الآخر نضج كبير في تطوير القصيدة و اخضاعها الى الوحدة العضوية و الموضوعية، فقد تخلص من تعدد الموضوعات و الأغراض.

- ان المتحكم في شعره هو العامل النفسي المتمثل في الحزن و الألم
- ان مظاهر الحزن عنده ناتجة عن أمور عدة مثل: موت الأب و الحبيبة، مرضه و القطيعة بينه و بين مجتمعه اضافة الى الاستعمار الذي زال من حدة تلك القاطعة.
- حزن الشابي يبدأ بتشاؤم و ينتهي بتفاؤل، آملا بغد مشرق، فتلك هي خصوصية الرومنسيين.
- أما في مجال الموسيقى فما يمكن القول عنه أنه حافظ على النهج العروضي القديم اظافة الى أنه أدخل بعض الأمور مثل: التنويع في قافية القصيدة الواحدة كما رأينا.

هذا. اظافة الى استخدامه بعض البحور أكثر من غيرها كالخفيف مثلا، فطبيعة النظام التفعيلي له يتجاوب مع تجاربه النفسية لاحتواء البحر على مقاطع طويلة وقصيرة تتماشى و التوتر و الهدوء.

ضف الى هذا كله حالات الكسر و التسكين في الروي، لم تأتي هباءا، و انما هي نوع من التأكيد لجوانب الانفعال عنده.

اضافة الى أن كلا الشاعرين التفتا الى الحكمة و الفلسفة، و تبيين هولة الموت و سلطة الفناء، أما من خلال الأسلوب فيتمثل في استعمال التكرار الذي يؤكد على عظمة الفجيعة، و كذلك في حشد الألفاظ الموحية بمعاني الحزن و الأسى و الصور التي تثير الرحمة و العطف.

كما أن قصائدهما جاءت واضحة البيان صادقة الشعور.

ان هذه المحاولة تشف عن وجهة نظر في تناول النص الشعري، و آمل أن أكون قد وفقت و لو بعض الشيء في تلمس جوانب الحزن و الألم في شعر الخنساء و الشابي، و بطبيعة الحال فربما أكون قد أغفلت بعض الجوانب الأخرى من غير قصد.

أخيرا أرجو أن أكون قد أضأت بعض الجوانب في شعريهما، ذلك أنني قد أخلصت الجهد و لم أتوان عن بذل ما أستطيع.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

اولا المصادر:

1. القران الكريم
2. أساس البلاغة، الزمخشوي، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة لبنان، دط،دت
3. ارشاد الحائر الى اثار ادباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش، طبع وإشهار دار بريكسي تلمسان، ط1974،2.
4. الأغاني ابي الفرج الاصفهاني، تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، ج15،ط1، 2002م.
5. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ج2، ط4، 1975م.
6. التعازي والمراثي، لابي العباس بن يزيد المرد، حققه وقدم له محمد الديباجي، دار صادر بيروت، ط2، بيروت، 1412هـ، 1992م.
7. ديوان اغاني الحياة، ضبط وشرح دكتور اميل كبا، دار الجيل، طبعة جديدة منقحة، 2002م.
8. ديوان الحماسة، تأليف ابي تمام حبيب بن اوس الطائي، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، دط، دت.
9. ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له الدكتور احسان عباس، جامعة الخرطوم، دار صادر بيروت، دط، 1379هـ، 1960م
10. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة بيروت، ط4، 1430هـ، 2009م.
11. دوان ابن رشيق القيرواني، جمعه وحققه وشرحه الدكتور محي الدين ديب، اشراف يسين الأيوبي، المكتبة العصرية، ط1، 1418هـ، 1998م.

12. ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله، جمعه وحققه وشرحه الدكتور محي الدين ديب، النكتبة العصرية، صيدا-بيروت،ط1، 1417هـ، 1997م.
13. ديوان ابو القاسم الشابي، الشابي، دار العودة بيروت، حقوق الطبع محفوظة، دط، اغسطس 1972م.
14. زهر الآداب وثمر الألباب، أبي إسحاق إبراهيم بن علي الخضري القيرواني، دار الفكى العربي، ج2،ط2،دت.
15. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار صادر بيروت لبنان، ط4، 1398هـ، 1978م.
16. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، تحقيق محي الدين عبد الحميد، منشورات دار الجيل، بيروت، ج2، ط5، 1401هـ، 1981م.
17. مروج الذهب ومعادن الجواهر، ابي الحسن بن علي المسعودي، تقديم حسين السويدي، الجزائر، ج2،دط، 1989م.
18. منهاج البلغاء وسراج الادباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار العرب الإسلامية-بيروت، ط2، 1988م

ثانيا المعاجم:

1. الصحاح، الجوهري، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي-مصر، ج1، دط، 1907م.
2. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت،ط3، 1414هـ، 1994م.
3. مقاييس اللّغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء العلوم العربية-القاهرة، ج2،دط، 1369هـ.

ثالثا المراجع:

1. ابو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، تأليف عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1394هـ، 1974م.
2. ادب العرب في عصر الجاهلية، الدكتور حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2منقحة ومزيدة، 1417هـ، 1997م.
3. اروع ما قيل في الرّثاء،إميل ناصيف، دار الجيل بيروت، ط2، دت.
4. اتمام الوفاء في معجم ألقاب الشعراء، سامي مكي العاني، مكتبة لبنان، ط3، دت.
5. الجامع في تاريخ الأدب العربي -الادب الحديث- حنا الفاخوري، دار الجيل بيروت، دط، 1426هـ، 2005م.
6. الخنساء،عبد الرحمن عائشة-بنت الشاطئ-،دار المعارف مصر،دط،1957م.
7. الخنساء شاعرة الرثاء،محمد حمود،دار الفكر اللبناني،ط1993،1م.
8. الخنساء منتخبات شعرية،فؤاد فرام البياتي،دار المشرق،ط7،ايار1981م.
9. ديوان الشعر التونسي الخديث
10. الرثاء،شوقي ضيف،دار المعارف-مصر ط2، 1955م.
11. الشابي وجبران،خليفة محمد التسيلي، الدار العربية للكتاب،ط4، 1398هـ، 1978م.
12. شاعرات العرب، عبد البديع صقر، منشورات المكتب الاسلامي، ط1، 1957م.
13. شرخ ديوان الخنساء، ابو العباس ثعلب، قدم له وشرحه الدكتور فايز محمد، دار الكتاب العربي-بيروت، دط، دت.
14. شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، مصطفى عبد الشافي الشوري، مكتبةلبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان،ط1، 1995م.
15. الشعر المغربي من الفتح الاسلامي الى نهاية الامارات الاغليبية والرستمية والادريسية (30هـ، 230هـ)، العربي دحو،ديوان المطبوعات الجامعية، دط،دت.

16. سعراؤنا ديوان ابي القاسم الشابي ورسائله، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الطلاب العربي- بيروت،دط، 1424هـ، 2004م.
17. عباقرة خالدون الخنساء، تاليف محمد كامل حسن المحامي،المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1996م.
18. عمالقة خالدون عند مطلع القرن، الدكتور عبد العزيز المقالح، دار الآداب-بيروت، ط2، 1988م.
19. علم البديع بين الاتّباع والابتداع دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، عبد الجليل يوسف دار الوفاء، ط1، 2007م.
20. قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، الشركة التونسية للتوزيع، دط، 1984م.
21. قضايا الشعر المعاصر، نازكالملائك، منسورات مكتبة النهضة، ط3، 1967م.
22. المفيد الغالي في الادب الجاهلي، الدكتور زبير درّاقي، ديوان الطبوعات الجامعية، دط،دت.

رابعا الموسوعات :

موسوعة الشابي:

1. دليل الباحثين عن الشابي،ار عداد وتقديم ابو القاسم محمد كرو، دار صادر بيروت،مجلد10، ط1، 1999م.
2. نثر الشابي،اعداد وتقديم ابو القاسم محمد كرو،دار صادر بيروت، المجلد5، ط1، 1999م.

خامسا الرسائل الجامعية :

1. رسالة ماجستير، قصيدة الرثاء في الشعر الجزائري القديم بين القيم الموضوعية والقيم الفنية، من الفتح الى نهاية الدولة الزيانية-الطّالب محمد بوعلاوي- 2006م، 2007م.

الفهرس

الفهرس

- مقدمة.
- مدخل: الرثاء..... 25-1

- تعريف الرثاء لغة..... 3
- اصطلاحا..... 5
- مراتب الرثاء:..... 6
  - الندب..... 6
  - التأبين 7
  - العزاء..... 8
- صور الرثاء:..... 12
  - رثاء الأهل و المقربين..... 12
  - رثاء الشخصيات..... 17
  - رثاء النفس..... 20
  - رثاء المدن و المماليك 22

- الفصل الأول: ترجمة الشاعرين..... 49-26

المبحث الأول: الخنساء..... 28

- اسمها و مولدها و نسبها..... 28
- حياتها..... 30
- مقتل أخيها معاوية..... 32
- مقتل أخيها صخر..... 34
- اسلامها..... 35
- شعرها..... 39
- وفاتها..... 39

المبحث الثاني: الشابي.....41
- مولده و نسبه و تعلمه.....41
- شعره و ديوانه.....44
- زواجه.....45
- وفاة والده.....46
- مرضه و وفاته.....47
- آثار الشابي.....48
- الفصل الثاني: دلائل الرثاء و الحزن.....72-50
المبحث الأول: الخنساء شاعرة الرثاء.....52
المبحث الثاني: الشابي شاعر الحزن في عصره.....60
- من مرثيات الشابي.....67
• الفصل الثالث: نقاط العاطفة الحزينة.....89-73
المبحث الأول: دراسة سيكلوجية.....75
أ- الخنساء.....78
ب-الشابي.....81
• الفصل الرابع: دراسة أسلوبية.....113-90
المبحث الأول: اتكرار.....92
أ- الخنساء.....93
ب- الشابي.....97
المبحث الثاني: الوزن أو البحر.....100
أ- الخنساء.....101
ب- الشابي.....104

المبحث الثالث: القافية و الروي.....109

أ- الخنساء.....110

ب-الشابي.....112

- خاتمة.....114
- قائمة المصادر و المراجع 118
- الفهرس.....123